الجانب البعيد من المنضدة

مجموعة قصصية

بقلم

ماهر عبد المحسن

مؤسسة رؤى للإبداع

رئيس مجلس الإدارة **صالح شرف الدين** المدير العام **مصطفى عماد** مدير الإنتاج **أكثم صالح**	**-الطبعة: الأولى** **- الكتاب: الجانب البعيد من المنضدة** **- المؤلف: ماهر عبدالمحسن** **- التصنيف: مجموعة قصصية** **- المقاس: ١٤ _ ٢٠** **-رقم الإيداع: ٧٤١١ / ٢٠٢١** **-الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٨١٣-٧٠-٠**

(أفكار الكتاب وحقوق الملكية الفكرية يتحمل مسئوليتها المؤلف وحده)

رؤى للإبداع: طباعة، نشر، توزيع

٢٩٨ فيصل الرئيسي - الجيزة - مصر

ت / ٠١٠٠٦٥٨٨٩٩٥ - ٠١٢٨٣٦٢٢٩٧٢

Email:syash٤@hotmail.com

www// :https facebook.com/saleh.sharfeldeen

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

"إلى بداياتي الأولى، التي شكّلت ذائقتي الفنية، فكانت إرهاصاً لشخصية إبداعية تروم الجمع بين العاطفة والعقل، بين الصورة الأدبية والتصور الفلسفي"

المقدمة

علاقتي بالقصة القصيرة بدأت في مرحلة الصبا، عندما كنت مغرماً بشراء الكتب القديمة من "سور الأزبكية" بالعتبة، ومن فوق سور مستشفى الجلاء ب "بولاق أبو العلا". وأذكر عن هذا الأخير أني اشتريت ذات يوم مجموعتين قصصيتين، واحدة بعنوان" مخلوقات براد الشاي المغلي" لمحمد حافظ رجب، والأخرى بعنوان "الركض تحت الشمس" لمحمد الراوي. ولأني لم أكن أعرف معنى القصة القصيرة في تلك المرحلة الباكرة من حياتي، فقد وقعت في حيرة عندما قرأت مجموعة الراوي، لأني كنت أشعر أن القصص مبتورة وتنقصها النهايات. ولأني لم أكن أفهم معنى السيريالية، فلم أفهم شيئاً من مجموعة حافظ رجب.

وقد انتظرت طويلاً حتى قرأت القصص القصيرة لنجيب محفوظ ويوسف إدريس، وانطوان تشيكوف وجي دي موباسان، في مرحلة الجامعة، ثم أدركت الاختلاف الكبير بين القصة الطويلة والقصة القصيرة، وكيف أن هذه الأخيرة تتميز بوحدة الزمان والمكان وقلة عدد الشخصيات، لأنها، في التحليل الأخير، لقطة تصور مقطع عرضي من الحياة.

وبهذا الوعى تابعت مجلات "فصول" و"إبداع" و "القصة"، وقرأت لمحمد المخزنجي وأحمد الشيخ وجار النبي الحلو، ومن جيلي قرأت لسيد عبد الخالق وميرال الطحاوي وأمينة زيدان. وحاولت أن أكتب

كما يكتبون، خاصة أن فن القصة القصيرة بهذا المعنى كان يلبى لدي حاجات نفسية وعقلية ملحّة، ويناسب طبيعة العصر السريعة اللاهثة.

ولأني كنت أرغب في إيجاد الطريق المناسبة التي أمضى فيها، بحيث أتمكن من وضع بصمتي الخاصة، التي تميزني كأي أديب ناجح، فقد كنت أبحث عن القصص ذات المضمون الفلسفي الذي يتسق وميولي الفطرية، ثم دراستي الأكاديمية فيما بعد. ولأن القصة القصيرة، بطبيعتها، لا تحتمل القضايا الفلسفية الكبرى فقد لاحظت قلة عدد هذا اللون من القصص، خاصة في الأدب العربي، فحاولت أن أسلك هذا الطريق لعلي أضيف شيئاً ولو بسيطاً في هذا الاتجاه، فكتبت عدة قصص، وفزت ببعض الجوائز في المسابقات الشبابية بالجامعة.

غير أن نقطة التحول الكبيرة جاءت عندما قرأت كتاب "نحو رواية جديدة" للأديب الفرنسي آلان روب جرييه، ثم مجموعة قصصية له بالاشتراك مع مواطنته الأديبة نتالي ساروت، وأدركت، بحكم دراستي، أن جرييه يطبق الفينومينولوجيا على الأدب، أي أنه لا يهتم بالمعنى الكامن خلف العالم الذي يصوره قدر اهتمامه بإبراز التألق الوجودي لأشياء هذا العالم كما تتبدي للوعى.

ومن هذا المنطلق جاء احتفائي بأشياء الحياة اليومية، وجاءت قصصي، في هذه الفترة، معبرة عن تجليات هذه الأشياء في حياة الناس. وأعترف بأني لم أكن في جرأة جرييه حتى أجرّد الأشياء من دلالاتها، وأحرم العالم من معناه، حتى لو كان مبتذلاً، فحرصت على

أن أمضى بين بين، وأن أطور نظرية جرييه بحيث تتناسب مع أفكاري وقناعاتي، فكان اتجاهي للأشياء، ولتفاصيل الحياة الصغيرة انطلاقاً من فكرة فلسفية مسبقة أو معنى كلى يتكشف بنفسه مع مسار الحدث وفعل السرد.

وبهذا المعنى، جاءت المجموعة غير مكتفية بالواقع الذي تصوره، لكن بالتقاطع مع الخيال تارة، ومع الفكر تارة أخرى، ما جعل القصص تتراوح ما بين الواقع الغرائبي الممتزج بالأحلام والأساطير، وبين العوالم الميتافيزيقية المفارقة للواقع.

وفي كل الأحوال، فإن الهدف المشترك، أو الرسالة الكلية التي حرصت على تضمينها في المجموعة، إنما هي لفت الانتباه إلى الدلالات العميقة التي تكمن في تفاصيل العالم الصغيرة، وفى الأشياء اليومية البسيطة التي يتجاوزها الوعى من فرط بساطتها، بالرغم من أنها تلعب أدواراً كبيرة في حياتنا وتحدد الكثير من مصائرنا دون أن نشعر.

ماهر عبد المحسن

الرؤى الأربع

الرؤية الأولى :

بعد عشرين عاماً أمضيتها في شعاب الحياة الممتدة معتقداً أني علاّمة في حل طلاسم الوجود...

أملك بصراً حاداً ينفذ إلى عمق الأشياء ... وفراسة بليغة تمكنني من قراءة وجه الكون بطلاقة، وكأنه كتاب مفتوح ...

بعدما كنت أطوق الوجوه وأعتصر الملامح بنظراتي الثاقبة ، فتفضي العيون بمكنونات نفسها المدفونة في أقبية الصدور ...

بعدما نصّبت نفسي قاضياً، أحكم على حادثات العالم ...

أفقأ عين الطبيعة بإصبعي وأعيد تصفيف شعرها المتهدل ببراءة...

أستولد أشياء وأعدم أشياءً ...

بعد عشرين عاماً من السياحة في طرقات وجهها المزدحمة، المصطخبة بضجيج الحياة ...

بعد أن حفظت كل خطوط ملامحها – خطاً خطاً – عن ظهر قلب.

بعد أن تلاقت عيوننا في عناق حار ، وأدرك كل منا أن عقده الأبدي مرتبط بالآخر... بعد ما تشابكت أصابعنا ، وشرعنا نصافح القدر ...

اكتشفت أني إنسان عاجز... أحيا برؤية مبتورة ... نصف العالم سقط سهواً من حسابي ومجموع حياتي قضية خاسرة...

فقد عشت بنصف شمس ونصف قمر... نصف بسمة ونصف دمعة... وربما شطرة من الوجه كانت تضاحكني ، وشطرة أخرى لا

أدركها كانت تقاتلني ... بل لعلي تزوجت بنصف امرأة وأنجبت بعض أطفال ، ومازلت للآن طفلاً ، فقد فقدت نصف عمري، فعمري الآن إذن عشر سنوات...

الرؤية الثانية :

حائل زجاجي يتوسط المسافة التي بيني وبين العالم... ومسافتان مجهدتان على الضوء أن يقطعهما في رحلته الطويلة عبر الوصول إلى نفسي ...

ونقاط من الضعف قفزت إلى حروف الرسالة العالقة بصدري ، المكتوبة بأصابع الشيخ الضرير ... تحجب عن قلبي عيون الفقر والموت والخراب ...

وقطعة حمراء عادت إلى راية الوطن الممزقة ، فرفعت رأسي وطالما مارست الانحناء..

ونصف من الكرة التحم بالنصف ، فبكيت "برونو"، وغفرت لـــ "جاليليو" ، بعدما أحرقت الكتب وكفرتُ بالعلماء ...

الرؤية الثالثة :

في رحلة الوصول إلى جبهتها ... توقفت كثيراً، وتعثرت كثيراً... وأصيبت رأسي بالدوار...

سألتها : لقد تغيرت كثيراً ... وأصبح الوصول إليك أمراً مستحيلاً... فكيف تغيرتِ؟

أجابت :لم أتغير.. أنت الذي تغير.. نفس الطرقات التي طالما مررت بها ،أراك الآن تعجز عن وطئها ... نفس القمة التي طالما اعتليتها ، تصلها الآن عيناك بنظرات حسيرة ويطويك السفح ضمن أحجار خذلها الارتفاع ... إن الإرهاق ليبدو مقحماً على وجهك وأنامل الضعف تدّعى لعينيك قوة ونفاذاً..

قلتُ : عندما كنت أنظر إليكِ ، كنتُ أشعر بالارتياح ، لكني الآن أشعر بالتعب ...أنّى لك بهذه الملامح المتعبة؟

قالت :اخلع عنك هذا الحائل المصطنع ، لتتكشف لك الرؤية بوضوح، وتواصل عدوك في نبضي...

قلتُ : لقد صارت جزءاً من تكويني... وإذا ما نزعتها ، إنما أكون قد نزعت عيني التي أرى بها...

بغير تردد ، وبإصرار متهور... مدّت يدها تنزع عينيَّ وهي تقول :عندما تعجز العين البشرية عن رؤية الأشياء بوضوح ، فإن النظارة لن تكون سوى إصرار صناعي على رؤيتها بشكل مزيف.

الرؤية الرابعة :

ظلام !!

توحّـد

عندما كان يحملنى بين ذراعيه ... كانت ذراعاه ترتجفان تحت ثقل جسدي العملاق ، وتفقدان حيويتهما يوماً بعد يوم ، حتى صارا عودين أصفرين ذابلين .

وعندما كنت أنظر إلى وجهه كنت ألمح شقاءً أبدياً تحالف مع الزمن ومضيا يحفران في وجهه طرقاً وعرة، كانت تصيبنى بالإرهاق وتقعدني عن مواصلة النظر.

وعندما كان يلتصق صدري بصدره وتتزامن دقات قلبي مع دقات قلبه ، كان نغماً سحرياً يسري بيننا وأحس أننا كيان واحد ، فأطوقه بذراعي الضخمتين راغباً في مزيد من الالتصاق ، فيبتسم ابتسامة عريضة توقف معاول الزمن عن نحت تمثال الشقاء في وجهه.

وعندما يتخلف قلبي عن قلبه ونفقد نغم الحياة الذي يربطنا ، تشيع في نفسه كآبة مميتة وتتحالف قوى الإعياء على بدنه ، فألمح في عينيه علامات الانهيار.

وعندما تترنح خطواته ويسري دبيب السقوط في عظامه ، وعندما انزلق من فوق ذراعيه على الأرض ، تصفعه هيئتي العاجزة عن السير، فيسارع باحتوائي وضم صدري إلى صدره في محاولة أخرى لتكرار لعبة الشقاء وممارسة طقوس التوحد المريحة.

وعندما أخبرته أني أدركت في منامي أن العلة تكمن في معصمي الأيمن ، وأن أحلام العجزة تقدم حلولاً لعجزهم، لم يفكر لحظة وحملنى إلى الطبيب.

وبعد أن شق مشرط الطبيب أنسجتي ، وبعد أن أدرك المستحيل في دمي ، أعاد رتق معصمي ولسانه يتمتم أسفا أني بحاجة إلى معجزة وأن أحلام المرضى لا تصنع المعجزات.

وعندما سألت الطبيب عنه ... أين ذهب ؟

تلفّت حوله مندهشاً وأطبق على معصمي وعيناه تتابعان خريطة جسمي فوق شاشة الليزر المضيئة ثم صاح مذهولاً ، أنه قد سقط في جرحى ومضى في شرياني.

سألته : هل يموت بداخلي؟

أجابني : إنه سم يسري في دمي وعلينا إيقافه.

قلت محتجاً بانفعال : إنه لم يكن يوماً سماً، بل كان دائماً ترياقي المعجز.

قال : علينا إخراجه ، ويجب ألا نضيع الوقت.

وعندما أعاد شق معصمي وأعمل آلات البحث في نسيج الذراع محاذراً قطّع الشريان كانت عيناي تخترقان شاشة الليزر تائهتين في شبكة معقدة من الخيوط عجز العقل عن فك رموزها ... وبدا لي أن مشرط الطبيب وشاشة الليزر لا تصنعان المعجزات.

وفجأة ، توقفت أعمال البحث والتنقيب واستدار الطبيب في واجهتي وقال يائساً أنه قد سرى في دمي وانتقل من معصمي إلى منتصف

الساعد .. شمرت ساعدي بلا تردد وأشرت إليه بالموافقة فمضى مشرطه يباعد بين خلاياي المتماسكة ، يتبعه "ملقاط" دقيق يقتفي أثراً ذائباً في سوائل الذراع.

وعندما استحدث الفتحة الثالثة في عضدي متتبعاً سباحته الطويلة في دم الشريان وعندما فشل للمرة الثالثة في الإمساك به ، توجَّه نحو "الكومبيوتر" يرسم خطة إلكترونية بعيدة المدى تتنبأ بسلوكه المستقبلي وتحدد نقطة في الكتف سيمر بها حتماً في زمن تحدد سلفاً.

وعندما انتهت آلاته من مهمة تمزيق الكتف ، صاح مذهولاً.. إنه قد خدعنا وخدع "الكومبيوتر" وسلك طريقاً مختلفاً تماماً واستقر في جوف القلب.

عندئذ ، مزقت أزرار قميصي وكشفت عن مساحة صدري في وجهه، وأفصحت عن رغبتي العارمة في شق صدري ...

فقال متأسياً : إما أن تعيش أو يعيش.

سارعت قائلاً : فليعش .

وعندما شهر المشرط في وجهي وشرع يغمده في صدري توقفت يده في الهواء وتلون وجهه بلون الفزع ... وعندما حاولت أن أزيل من قلبه رهبة القتل دافعاً إياه نحو قدر محتوم... تمتم لسانه بعبارات خافتة ذات نبرة غريبة...

قال : إن وجهك تشرّب بملامحه ... وعينيك تلونت بلون عينيه ... وأنفه تمدد في أنفك... وصوته قد احتل مكاناً متقدماً في حنجرتك...

التفت ناحية الشاشة البيضاء وقال :

إن جسده قد تناثر في جسدك ، ودماءه امتزجت بدمك ... إن شخصه يستحيل فصله عن شخصك لأنك صرت هو .

وعندئذ خرج صوته من أعماقي يطلب منه أن يسد الثغرات المحدثة في ذراعه فعاد يرتقها واحدة بعد الأخرى ... أنسجة كتفه وعضده ... ساعده ومعصمه ... وما أن انتهى من عمله ووقف يسترد أنفاسه حتى صعقته المفاجأة ، فقد اكتشف أن زجاجة التخدير مازالت ممتلئة عن آخرها ، وقبل أن ينطق بكلمة قابله بابتسامة رسمها على شفتيي، لأنه لم يشعر بأي ألم ... ومضيت من أمامه شاكراً إياه سائراً على قدميه.

قطار الزمن البعيد

القضبان الحديدية المنغرسة في جسدي والتي تقض مضجعي .. رحل قطارها منذ زمن بعيد ..

الأماكن الخاصة ملك للأفراد .. والأماكن العامة ملك للدولة .. لذا فدائماً أبيت في ملك غيري .. ودائماً هناك من له حق إفزاعي من نومي وإفساد أحلامي.

لا أذكر أني ملكت شيئاً في حياتي أو حتى اشتريت.. فدائماً أدفع ودائماً أبيع.. ودائماً يحفرون الأرض أو يسحبونها من تحتي إذا ما لاحت على عينيى إمارات غفوة، أو ارتخت مفاصلي في شروع نحو القرفصاء.

علاقة وثيقة تمت بيني وبين الأرصفة .. بيني وبين النمل والصراصير وحشرات أخرى لم أسمع عنها ، لكني اكتشفتها بنفسي وعددت نفسي بعدها أحد المكتشفين ، وأدركت من خلالها أين كان ينام "إديسون".

علاقة قوية تربطني بالأحذية و"الشباشب" والأقدام القذرة الحافية.. لا أرى من الوجوه إلا الساقط منها أو المحمول على أربع.

إذا نمتُ على الجنب الأيمن يكون الميدان أمامي والبحر من ورائي ، ذلك على الرغم من أني لا أكن للميدان أي عداء.. وفي اتجاه قدميَّ يقع موقف الأوتوبيس ، عرفت ذلك من وطأة سنابك البشر التي تطحن أصابعي.. أما المنطقة التي خلف رأسي فكانت دوماً مجهولة

وغامضة ، إلى أن نجحت في احد المرات في تحقيق استدارة كاملة لتكون عيناي في المواجهة.. وقتها لم أكتشف جديداً ، لكني أدركت بعد ذلك أنني بهذه الاستدارة الكاملة فوق الحصى والأتربة قد أثبت أن الأرصفة كروية وأن غطاء البالوعة هو مركز الميدان وليست النافورة اللامعة المثبتة هناك في خيلاء كاذب.

ورغم أني لا أرتاح لهذا الوضع إلا أني أتعمد أن تكون رأسي في اتجاه القطب الشمالي، وقدميَّ فى الاتجاه الجنوبي ، لا لشيء إلا لكي أطبق شيئاً درسته .

لم تعد تزعجني عربدات الأقدام وبقايا حماقات العاشقين ، لكني لم أذق يوماً للنوم طعما.. لعل عينيى المفتوحتين هما سر بقاء جسمي ممداً في هذا الجو المشحون بنفايات البشر .

النوم في الميادين والحدائق العامة علمني ألا أخشى المركبات ، فالإنسان يجيد قيادة غيره أكثر مما يجيد قيادة نفسه ... وأذكر أن سيارة قد مرت فوق رأسي ، ومشاجرة دارت فوق صدري ، وبين جنبيَّ أقيم ذلك الجسر العتيق لعبور المشاة ... لكن رغم ذلك، مازال الجميع يصر على إهماله وإعمال أحذيتهم المدببة في لحمي.

منذ أن صارت الأرض لي مأوى وانحصرت حياتي في حفنة من الأتربة وسرب بشع من الحشرات ، وأنا لا أعرف لنفسي كياناً محدداً...

يوم أن تخطتني عجلات الترام سبع مرات متتالية ، ذهاباً وإياباً... أيقنت أني "عمل" شيطاني شريرإليه تُعزى كل النكبات والكوارث التي ألمّت بالناس.

ويوم أن مرت أصابع إحداهن ، تمسح جسمي بعين مأخوذة وقلب مسحور ... أدركت أني "وليَّ " صالح ، أملك ترياقاً لكل أوجاع المرضى ، وذرية صالحة لنساء عقيمات ورجال طالما خذلتهم رجولتهم.

وعندما وقف أحدهم فوق رأسي كاشفاً ما بين فخذيه ، عرفت أني مجرد معنى حقير يكمن في رأس معتوهة.

بين النوم واليقظة مسافة كبيرة تحوي أشباحاً مقبضة... أشباهاً للموتى ، وأشباهاً للأحياء .. ومسخاً مخيفاً لحشرات غير مألوفة ... تحاول رأسي أن تخترق الحجب ... أن تقطع المسافة المضنية ، وتحتل مكاناً بين الرؤوس اليقظة ... يتناحر كتفاي المنهكان وسط الأكتاف السامقة ، وتجحظ عيناي متتبعة بريقاً ضوئياً خاطفاً، يلمع بين والحين ... تهفو إليه روحي بشوق قديم ، وتبدأ رحلة مقدسة نحو الفضاء الأعلى ، لكن أطرافي المكبلة وجسدي الملتصق بالأرض يحولان دون إتمام رحلة الصعود ، فترتد الروح الهائمة في البدن المكبل .. ويهتز الجسد بعنف ، مخلفاً على جلده علامات الأرق والموت والانهزام .

وقطار الزمن البعيد ، أشعر به قادماً .. أضواؤه تخطف الأبصار ، وهديره يعصف بالآذان ... يعيد اكتشاف قضبان منسية ، وتضع عجلاته حداً لعظامي الضائعة ... مفقودة الهوية ...

رجل بلا قبعة

في السادسة صباحاً أصحو متعباً أو غير مجهد ... صنبورا الماء البارد والساخن يعلنان عن حيادهما السلبي عند انقطاع التيار المائي ... الحلاق الذي يقص شعري يصر على أن يتركه غزيرا في مقدمة الرأس ... للصلاة سجادتان ، إحداهما من الصوف والأخرى من القطن. الأولى في حجرة النوم والأخرى في حجرة الصالون ... إذاعة الشرق الأوسط تقدم أغان قصيرة، إذاعة البرنامج العام تقدم أغان طويلة ... أتجنب الوقوف أمام الشرفة أثناء ممارستي لتمرينات الصباح ... أطباق الطعام تلفظ أنفاسها الأخيرة عند المساء، كوب الشاي يضع حلاً مؤقتاً لتساؤلات خبراء التغذية ... عيناي تلوحان بالتحية لبائعة الكشك المقابل أسفل المنزل ... قبل أن أنعطف يسارا ألتفت جهة اليمين بحركة

لا إرادية... أجتاز الدرجات الحجرية المؤدية إلى طريق أسفلتي يفضي إلى موقف الأوتوبيس... الأتوبيسات متراصة في الناحية الأخرى ، ووجوده في هذه الناحية يوفر علي مشقة عبور المسافة الفاصلة بين الناحيتين.

يركب معي كل يوم ويتجه نفس الوجهه، ويلتزم نفس البقعة الظليلة في حالة شديدة من التحفز والترقب لسيل العربات المتدفق ، يلتقط أرقامها ثم يزفر بقوة ويداه تضربان الهواء إذا لم تكن عربته بينهم... يتحرك كثيرا في مسافة ضيقة ، في كل لحظة يبدي ضيقه وأسفه

للفضاء وللوجوه الصارمة الجامدة المنشغلة بنفس هم الانتظار ... لم أشأ أن أصارحه بالصلة التي تربطنا ، فدوره يجب أن يقف عند هذا الحد من الهوس والختل...

ملامحه عادية جداً ولا تختلف كثيراً عن باقي الوجوه التي تحاصرني كل يوم وبغير مناسبة ، بل لعله يتشابه مع الكثيرين ممن رأيتهم من قبل ، ولم تكن حركاته الانفعالية لتميزه ولم يكن احتجاجه الدائم والمستمر ليستوقف الآخرين ... لكن الملاحظ أنه لم يكن يرتدي قبعة ولا يتوكأ على عصا ولا رأيته يوما يحمل حقيبة...

في هذا الصباح داخلتني رغبة عميقة في تجاوزه وتجاوز المسافة المطروحة من عمر حذائي ومحاولة التأكد من أن سيارتنا لم تصل بعد ... المسافة قصيرة جداً لا تزيد على بضعة أمتار ... الزاوية التي تميل بها السيارات أثناء وقوفها تجعل من الصعب على الراكب أن يعرف هوياتها إذا ما اكتفى بالوقوف هناك ، ولم يكن هناك من يعلن احتجاجه على الملأ ...

رفعت رأسي أحاول مراجعة الأرقام في قليل من الاهتمام ، الثلاث سيارات الأولى لم تضف جديدا ، لكن السيارة الرابعة كانت تحمل المفاجأة ، إذ أنها ذات السيارة المنتظرة ... التفت إلى هناك حيث يقف ، كان لم يزل في بقعته الظليلة يمارس نفس طقوس الاحتجاج ... صعدت السيارة ورأسي يعمل بقوة لا تتناسب مع فترة نومي القصيرة...

لماذا لم يصعد السيارة ؟ وعلام يواصل احتجاجه ؟! لعله غير اليوم وجهته ، أو غير موعده ، وربما لم يلحظ مرور أوتوبيسه في غمرة سخطه واحتجاجه المتواصلين ... لم أقنع بأي من هذه التفسيرات ، وخطر لي خاطر مؤلم ، فربما كان هذا الأوتوبيس يقف هنا في نفس الموعد كل يوم بينما يقف هو هناك بحالته الغريبة هذه في انتظار لاشيء ، بينما أعلق مصيري بمصيره ، وتتحكم إرادته غير الواعية في موعد وصولي إلى عملي ، وأتساءل كل يوم في حيرة ، أي شيطان دفعني إلى الوصول متأخراً ؟!

ارتج الأوتوبيس في سبيله إلى التحرك فأفقت من خضم أفكاري وخيالاتي وبحركة تلقائية نظرت إلى هناك حيث يقف ، لم يكن هناك من أثر له ... أخذت أحدق مذهولاً في بقعته الظليلة الشاغرة ، والدهشة تغمر رأسي وعقلي وقلبي ، إلا أنها – رغم ذلك – لم تكن لتتساوى بدهشتي عندما اكتشفت أن كل الواقفين على المحطة لا يرتدون قبعات ، ولا يتوكؤون على عصي ، ولا حتى يحملون حقائب...

سارقة الملامح

جذبته من أنفه وعينيه ثم بسطتهما أمامها وأخذت تتلفت حولها في حذر وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة مضيئة ... ثم عادت لتجذبه من فمه وتوقفت كثيراً عند رأسه ، تخلع قبعته ... تمضي في شعره ... تصففه ... تشتته ... تبسطه أمامها تمضي بشفتيها في الهواء ... ترسم ابتسامة هادئة ... مضيئة .

بواحدة من نظراتي المختلسة لمحتها وهي تلملمه من أمامها وتضعه في حقيبتها... أحكمت إغلاقها ثم طوقتها بذراعيها في حرص شديد وعيناها تتجاوزانه ... تدوران في مساحة كبيرة اصطفت فيها الوجوه، واصطخبت الملامح بتعابير متناقضة وأحاسيس متغايرة.

عدت ببصري إليه لأرى مسخاً غريباً لمعالمه ... كرة عظمية تقف بين كتفيه وكتل لحمية تتساقط من وجهه وتحفر أخاديد عميقة حالكة السواد ، وأسنان صفراء متكسرة تبرز من بين فكيه ، تصطك ببعضها في حدة ... تكمل حديثاً بدأه منذ زمن بعيد.

اجتاحتني موجة عنيفة من الفزع ... دارت عيناي في وجوههم تستكشف الرؤى المرعبة من فوق صفحتهم الذاهلة ، وتلملم أطياف الخوف التي تعشش في رؤوسهم السكرى بكؤوس الدهشة والاستغراب ... لكن رأساً واحداً لم يفزع ولم يستغرب ... كل الرؤوس ظلت تتمايل وتهتز بنشوة غريبة ... مؤيدة أو موافقة .

التقت عيناي بعينيها وتوقفتا عندها ... كبلتني بنظرة عجيبة وشرعت تستحدث في نفسي فجوة عميقة ، فأحسست بآلة حادة تتحسس قلبي بوخزات رتيبة تحمل طابعاً من الرقة... استسلمت لها برهة يسيرة منتشياً بشعور غريب سري في بدني ... مزيج من اللذة والألم ... عالم سحري ملون تاه عقلي في دروبه الفسيحة ، وعلا صوت قلبي خارجاً من ضلوعي ... وبدأت أحاسيس اللذة في الخبو حتى وصلت إلى حد المرارة، وأخذت مشاعر الألم في الارتفاع حتى تحولت وخزاتها الرقيقة إلى طعنات غائرة دامية... وأحسست بدمائي تُسحب مني وتتجمع في وعاء خاص لديها ... أخذتْ ترجرجه بسعادة بالغة وهي تضيف إليه سوائل أخرى متمايزة... تصنع مزيجاً من الدم والعرق والدموع.

وفجأة امتدت أصابعها إلى رأسي ... تجذبني من شعري ... تنتزعه شعرة ... شعرة ... تجمعه ... تصنع فرشاة ناعمة ... تغمسها في دمي ... ترسم أشباحاً خرافية وعالماً أسطورياً مليئاً بالمردة والشياطين .

وعادت مرة أخرى تمد أصابعها نحوي ... تدبهما في عينيى، لكن انتفاضة عنيفة هزت جسدي وتسببت في إفاقتي ، فانتزعت رأسي من بين عينيها وفررت بعيداً منهوك القوى تخرج من صدري أنفاسا ملتهبة وتطيش نظراتي في فراغ تلطخ بدماء قلبي المطعون ... ثم أخذت عيناى تتساقطان ذائبة في وسط باهت من الرؤية ، محدثة انكساراً حاداً في نفسي فبدوا من حولي أشباحاً تتراقص بغير أرجل

أو أذرع ... بغير رأس محدد تحمل معالم ممسوخة، وملامح ضائعة،وأسنان تبرز عظامها من الوجه بفظاعة ...
تلوك الكلمات بنهم شديد ... تثرثر بلا وعي
أو معنى ... تختلط الحروف كما اختلطت الملامح ، ويستحيل المكان إلى حياة ممسوخة أقرب إلى الموت ... وقبل أن تُهال على رؤوسنا أتربة القبور ... وفي محاولة مني لإفاقتهم وتنبيههم إلى كياناتهم الضائعة أطلقت صرخة مدوية لكنها ذابت في ثرثراتهم العالية وتحولت إلى عنصر فوضى
لا معنى له.
وفي محاولة أخرى ، أخذت أدفعهم بيدي وألكزهم بكوعيَّ وأكتافى ... لكن دفعاتي ولكزاتي تحولت إلى محض حركات راقصة امتزجت بعربداتهم .
ومن بين غبار الردم الذي شرع في الانتشار لمحت شفتيها ترسمان بسمة هادئة ... مضيئة .
وبدأت الأتربة تملأ الأنوف والأفواه والعيون ... وأخذت ثرثراتهم في الخفوت تدريجياً لتحل محلها سعالات حادة تخرج من حناجرهم المخنوقة بطقوس الاحتضار .
وفي لحظة حاسمة ، لمعت عيناي على غير العادة ، وتحركت شفتاي ترسمان ابتسامة ماتت في رحم أمي منذ زمن بعيد ... وبخفة لم أعهدها من قبل ، تسلل ذراعي يتلوى بينهم ... يبحث عن ذلك التابوت الأسود الراقد في أحضانها ، الحاوي لكل الملامح المسلوبة والضائعة ... انقضت أصابعي عليه بعنف مفاجئ ، تنتزعه من بين

ذراعيها اللتين تطوقانه برغبة عشق محمومة ... تنثر محتوياته العجيبة ... فرشاة ومرآة وقليلاً من الطلاء ... أدوات "مكياج" تستخدمها في تثبيت ملامح قديمة اندثرت خلف مسامات جلدها الملون ... ومجموعة من العيون المفتوحة المتسعة لكل بنايات العالم غارقة في ظلمات التابوت ، تلمع ببريق دامع بلل أصابعي ... أطبقتُ على محتواه بكلتا يدي وضممته إلى صدري ... أضمد جراح قلبي ... أنثره عالياً في الفراغ ... ترتسم أشكالاً غامضة ... تتحلل وتتساقط ... تعود لكل وجه ملامحه الضائعة ... قبعته ونظارته ... تستحيل الرقصات إلى إشارات وقورة معبرة ، وتصبح الثرثرات المبهمة عبارات جادة عميقة المعنى ... وبدأت تنشط الرغبات الرافضة في النفوس ... وبرزت عبارات الاحتجاج بشجاعة نادرة ... واحتدم النقاش حتى كاد أن يصل إلى ذروة الحق ... وعندئذ مات الصوت فجأة ولاح الصمت متربعاً على جثته يكسو الوجوه بدهشة كبيرة ، ويجلو العيون بنظرات ملؤها الفزع ... ثم اندفعوا نحوي بشراسة يصرخون في وجهي ويدفعونني بأيديهم وأقدامهم حتى سقطتُ بينهم طريح الأرض ... وقبل أن تُدفن رأسي في التراب ، التقت عيناي بسطح المرآة الساقطة تحت أقدامهم فانتابني فزع مميت ... وأخذتُ أحدق في المرآة غير مصدق وجسدي ينتفض جزعاً ... لم يكن أمامي سوى أن أترك نفسي تنساب مني، ليخرج من فمي محتوى جوفي في مشهد مروع أذهل الجميع ... فقد اكتشفت أني قد فقدت ملامحي .

كي أعيش

تسرب الملل إلى نفسي ، وعيناي تتابعان هاتين الشفتين الملتصقتين بعنف ... أتمت عقارب الساعة دورتها ، وبدأ الليل يوغل في النهار ... بحثت عن بقايا تبغ تنفسته في الصباح ، وأخذت أسعل بقوة مفتعلة ، مسدداً حشرجتي إلى المسافة الفاصلة بين الشفتين عليّ أن أنزع عنهما نوما زحف أو أوقظ حياءً نسيه أحدهما في داخله...

طاش السعال في الفضاء ... وتبددت حشرجتي في سكونهما الرهيب ... أعدت المحاولة، ولفحات البرد تطوقني ، وتعتصر قامتي ، فتجعلني هيكلاً صلباً مثبتاً بالأرض كنهاية طبيعية لسلسلة طويلة من أعمدة الكهرباء منزوعة المصابيح.

أمام إصرارهما على البقاء على وضعهما الشاذ الغريب وبعد أن أكملت الساعة دورتها الثانية ... بدأت أفقد النشوة التي كنت أستشعرها من مراقبتي لهما ... ودب الخوف في نفسي عندما تذكرت الحارس السابق ، وقد عثروا على عظامه مكومة في هذا المكان صباح ليلة مماثلة ... وتذكرت الأساطير التي نسجت كي تفسر هذا الموت الفريد ... وما قيل عن غرام الجنيّات وعشقهن العنيف لدماء الرجال ..

أخذتني رجفة شديدة كادت تهوى بي ... وبذلت جهداً كبيراً وأنا أستخرج علبة الثقاب وأحاول أن أحدث بعض الشرر ... فقد سمعت أن النار تحرق الجن وتصرف العفاريت ...

خذلتني النار ، وقد أحدثت الرطوبة في علبة الثقاب بعض البلل ، فاشتدت الرجفة تهزني بعنف ... أحسست بجسدي وقد تيبس تماماً... وخيل إلي أن طائراً صغيراً حط على رأسي وشرع يحفر عشاً يحتمي به .. قفز إلى ذهني خاطر أنه عفريت صغير جاء يلهو بوقاري

أو أنه جنية حمقاء مراهقة ، أتت لتمارس معي دلالاً شريراً ...

بحركة مضطربة جذبت بندقيتي من فوق كتفي وصوبتها نحوهما ... عيناي تحدقان في المسافة المنعدمة بين الشفتين ، وإصبعي يتأهب للضغط على الزناد ... ضغطتُ ... أحسستُ بمخي يُسحب من رأسي ...

وقفت أمامهم منكس الرأس ، ونظرات الاتهام تلتهمني بشراهة لم يسبق لها مثيل ... اجتهدت أدافع عن نفسي ، أدفع عن رقبتي ذنباً لم أقترفه ... قلت أنها كانت لحظة مصيرية ، إما أن تخرج الرصاصة أو تخرج روحي ... دوى صوتُ ورائي ... فتلخرج روحك ... قلت إن خطيئة كبرى كانت تجري في الظلام ، رصاصتي منعت نهاية مأساوية ...

ارتسمت على الوجوه بسمة ساخرة واقترب كبيرهم مني ، وأخذ يربت على كتفي قائلاً... إنه ليس من مهامنا أن نمنع وقوع القبلات ، وإنما – فقط – علينا أن نمنع السرقات .

اندفعتُ أوضّح إن القبلات سرقات معنوية ، وإن اختلاس المبادئ أفحش من اختلاس الأموال ... وإن ... هوت على خدي كفه الغليظة

.. شعرتُ بحذاء مصقول يدفع مؤخرتي بعنف... ارتطم وجهي بالأرض.
عانيتُ صعوبة بالغة كي أنزع وجهي الملتصق بالأرض .. تحسستُ نفسي .. شعرت ببقايا من الجسد لم تزل عالقة بروحي .. لملمته ، وتكومت في أحد الأركان ... لا أدري شيئاُ عن موقعي ... هل يبعد كثيراً عن باب الزنزانة ؟
هل هناك آخرون محبوسون معي ؟؟
الظلمة تبتلع الأشياء ... تعدم المكان ، وتمحى الوجوه وتختصر الأحاسيس إلى شعور وحيد بالفراغ ... ركنت رأسي إلى الجدار ... أُخذت ذاكرتي تجتر أحداث الساعات الماضية ... وما أن وصلت إلى الساعة الأخيرة ، حتى شعرت بوخزة عنيفة ، انتفض جسدي على أثرها ... وبدوت وكأني أهوى في بئر سحيقة ... تشبثت بالجدران وأنفاسي تتلاحق متعبة ...
في هذه اللحظة أدركت أنه لكي أعيش ... عليّ أن أغمض عينيى، وأن أتجاوز عن بعض الحماقات ...
ضحكة ماجنة دوت بالخارج ... تنبهتْ لها كل حواسي ، وتوقفت عن معاناة الألم. تساءلت مندهشاً ... هل ألقوا بي في سجن النساء ؟
صلصلة صاجات رنت ... ضحكة أخرى جلجلت ... صوت رجالي ... نقرة على طبلة ... مزمار ... علت موسيقى صاخبة ، وضحكات امتزجت بالميوعة ... انبعثت في الفضاء رائحة مخمورة ، فثمل الهواء ، وبات التنفس فعلاً محرماً .

ظننت أن أشباحاً تعربد في الخارج ، حيث الظلمة مرتعاً للشياطين ، لكني تذكرت أن الأشباح لا تسكن الزنازين .
بملء في زعقتُ فى وجوههم ... إن طقوس الانحلال تُمارس يومياً في ظلمات الزنازين... وأن السجون لم تعد دور إصلاح وتهذيب ، بل أصبحت دور فُجر ومجون ... وأن الأسوار التي تحيط بالسجون نخر فيها سوس الإهمال ، فاختلط الأشرار بالخيرين ، وصار السجن ملهاً صغيراً ، والعالم سجناً كبيراً .
اكفهرت وجوههم ... اقترب كبيرهم قاطب الجبين ... يقف على فوهة بركان غير مرئي... بصق في وجهي صارخاً ...
حتى أنت يا ابن الكلب !!
إشارة من رأسه ... انقضّوا عليّ بروح همجية ... أعتصروا جسمي بينهم ... سهّلتُ نحافتي مهمتهم في تقويضي ... طقطقت عظامي بصوت عال ... أختنق صوتي... قذفوا بي بعيداً ... شهقتُ بعض الهواء زفرته في صدر أحدهم ، وقد ارتمى على صدري غاص صدري في داخلي ... شعرت أن جسدي تطابق مع الأرض في مستوى واحد... تعجبتُ كيف يصرّ هذا الرجل على أن يعانق أرضاً صلبة ... كانت قدماي ماتزالان تملكان بعض الحرية ... مارست بهما بعض الحركة ... ارتمى رجل ثان فوق قدمي ، وسارع ثالث يكبل أصابعي لما صدرت عن السبابة رعشة لا إرادية...
الآن أستطيع أن أقول إني مسلوب الإرادة وأن جسدي يخضع لسلطان الغير ... لكني مازلت أملك بعض الإرادة ... مازلت أملك الخيال

... يمكنني أن أغادر المكان ، وأهرع إلى آفاق أخرى أكثر رحابة ، ولأترك لهم هذا الجسد كي يمارسوا ما شاءوا من الحماقات.
الانفراجة البسيطة التي لاحت على وجهي دفعتهم إلى الضغط بقوة ... مزقني الألم ... فقدتُ القدرة على التخيل ... نزعوا عني ملابسي ... جذبني أحدهم من جلدي ، يتأكد أن شيئاً لم يعد يسترني ... بحثت عن شيء أتدثر به ... اندفعتُ بينهم أحاول أن أستتر بملابسهم ... بدوا كلهم عرايا ... رفعوني عالياً ... قيدوا قدميَّ في سقف الحجرة ورأسي يتدلى إلى أسفل ... أخذ جسدي يتأرجح في إيقاع منتظم ... قال كبيرهم ، وهو يضحك في سخرية :
أيقظوني عندما تشير رأسه إلى السادسة .
انطلقوا جميعهم يضحكون ببلاهة ... بدت الأوضاع في عينيي مقلوبة ... رؤوسهم تتأرجح في الفضاء ، وأقدامهم ملتصقة بالسقف .. اقتربت رأسي من رأسه ... وجهه ... عينيه... أحسستُ أن شفتيه ، وضحكته ليستا غريبتين عليّ ... نفس الشفاه التي كانت تلهو في العراء ... نفس الضحكة التي كانت تعربد خلف جدران الزنازين ... حاولت أن أبصق في وجهه.. لم يكن هناك لعاب في فمي ... جفت سوائل جسمي .
كانت رأسه تقترب من رأسي ... وتبتعد ... أمسك بسوط كبير ... انهال على جسمي ... اضطرب إيقاع حركتي المنتظم ... تفجرت بعض الجروح ... سالت الدماء على وجهي ... برؤية باهتة ، لمحتهم يتلذذون بطقوس تعذيبي ، والضحك يملأ أشداقهم .

عندئذ ، أدركت أنه لكي أعيش علي أن أضع في عيني مقلتين معتمتين ... وأن أهتك غشاء أذني ... وأترك لساني مشنوقاً في حلقي ... ثم أتجاوز عن كل الحماقات !!

الأحياء والأموات

على جانبي الجسد المسجي في خشوع أبدي ... اصطفت الجلابيب السوداء والرمادية القاتمة ، وسارعت الوجوه تستبق نحو العبوس ... قلص أحدهم وجهه ببلاهة ... رد عليه آخر من الناحية الأخرى مفتعلاً تقطيبة أرهقت جبينه ...

شعر ثالث بعلامات النصر تلوح على وجوه الآخرين ... نفخ هواءً ساخناً وكتم أنفاسه حتى شعر بالاختناق وأغرورقت عيناه ... مد أصابعه بخشونة وتوتر يدفع دمعة يتيمة نحو السقوط ...

في الصف الآخر بدا وكأن روح الهزيمة تغزو قلوبهم ... نظر أحدهم إليهم بخزي ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يلطم خديه بعصبية وتشنج ... اندفع الأولون يمطرون المكان صراخاً وعويلاً ... انطلق الآخرون يطلقون الشعور ويشقون الجيوب ... التحم الأسود بالرمادي واختلط العبوس بالدموع ... والبكاء بالعويل ... وتكشفت عورات شديدة القبح ...

في حجرة ضيقة شبه مظلمة تكوّم الجمعان في وضعين متقابلين ... بدوا كقطعتين من الليل تندتا بقطرات من الضوء الخافت ...

برزت رأس من إحدى الكومتين ، قالت بحماس ... الكفن علينا ...

برز رأسان للكومة الأخرى ، وقالتا بحماس أشد ... ماذا تقول ؟

لن يقوم بالتكفين سوانا ...

ارتدت الرأس الأولى ، وبرز رأسان آخران ... يثرثران بإصرار محموم ...

ياللعار ... ماذا سيقول الناس عنا ...

... بل ماذا سيقولون عنا نحن ... لا شك سيأكلون وجوهنا ...

... الأمر لا يهم بالنسبة لكم ...

برزت كل الرؤوس دفعة واحدة ... ونطقوا بلسان واحد كالسوط : مجانين ...

استطالت الكومة الأولى إلى أعلى تكاد تلامس سقف الحجرة المنخفض :

لا مجانين سواكم ...

استطالت الكومة الأخرى بدرجة أكبر حتى أن جزءاً منها لامس السقف بالفعل:

سنقوم بالتكفين رغم أنف الجميع ... ولن يمنعنا مخلوق ...

اهتزت الكومة الأولى اهتزازة متوترة ... انكمشت ثم استطالت ... تمددت وتكورت ... ثم التحمت بالأخرى في اندماج مجنون، وصارتا كومة واحدة متعددة الرؤوس ... تتكور وتتمدد ... تتقعر وتتحدب ... جزء ناتىء صدم مصدر الضوء الخافت ... ذابت الكومة السوداء في الظلام ...

أمام المسجد ... وقفت سيارتان على جانبى الطريق فى وضع تواز ... بينهما في المنتصف تقريباً، وقف الجمعان وجهاً لوجه ...

سنحمله في سيارتنا ...

بل في سيارتنا نحن ...
سيدفن في مدافننا ..
بل مدافننا نحن ...
إن بلادكم لبعيدة ....
بلدكم أنتم أبعد ..
لكنه ولد بها وتربى ... ويجب أن يدفن فيها ...
وقد عاش في بلدنا ومات فيها ... فمدافنها أولى به ...
ضاق صدر أحدهم، ونفد صبره، فقال بتحد:
اسمعوا جيداً ... لقد تركناكم تكفنوه، فدعونا ندفنه بالتي هي أحسن.
نطق رجل مسن بنبرة خوف خافته يستعطف المتوعد:
اتهددنا يا بني ؟
أشاح بيده في وجه الرجل بغير مبالاة وهو يقول بضيق:
إني أمارس حقي .
اندفعت امرأة متوسطة العمر من مؤخرة الجمع، تشق صفوف الرجال المتكتلة ... وقفت أمامه، وهي تقول بجسارة:
أنت بالذات لا حقوق لك ... أنت ابن عاق لوالدك
رفع كفه عالياً، وكاد يلطمها على وجهها، لكن يداً أمسكت بيده وذراع أخرى طوقت خصره، وحال جسم ثالث بينه وبينها ... همس أحدهم في أذنه:
هل جننت ؟!

بينما تملصت هي من اليد التي تكبلها، وقفزت عالياً تبصق في وجهه، وهي تقول:

تريد أن تضربني يا عديم التربية ... يا ناقص ...

اشتعلت رأسه بالغيظ والجنون ... أخذ يتقافز من بينهم، يحاول الإفلات... قال بنبرة فاحشة:

أنا ناقص يا بنت ال ...

سد أحدهم فيه بيده ... في حين انطلقت قبضة مباغتة من وسط الجموع واستقرت في عينه فسقط فاقداً الوعي ...

افترق الجمعان قليلاً ... التف جمع نحو الابن المصاب ، والتف الآخر نحو المرأة الثائرة خرج رجل من الجمع الأول واتجه نحو الجمع الآخر ... أمسك بذراع الرجل المسن وأخذه جانباً بعيداً عن الجمعين ... قال له متصنعاً الحكمة ..

أيرضيك ما حدث ؟

أجاب الرجل وقد شعر ببعض الأهمية :

هو المخطئ .

قال الرجل بمكر:

أنا لا أقصد ما حدث الآن ...

سأل الرجل المسن مندهشاً:

ماذا تقصد إذاً ؟

- الخلاف الذي وقع بخصوص مكان الدفن .

- ماذا ترى ؟

– أن يُدفن في بلد ابنه .

لمعت عينا الرجل وشعر بالغبن ، فخشى أن يتورط ...

قال :

ولم لا يدفن في بلد ابنته ؟

نفخ الهواء بضيق ثم قال :

الولد أولى ، هو الذي سيتلقى العزاء .

علق الرجل بعناد :

وابنته أيضاً ستتلقى العزاء .

فاض به الكيل ...

قال :

أهذا هو رأيك وقد ظننتك أنت العاقل...

أحس الرجل بالمهانة والاستخفاف بوقاره ...

قال منفعلاً:

نعم عاقل وأعقل من أبيك .

– أنت رجل سليط اللسان .

– وأنت في حاجة إلى تربية .

دفعه بقوة في صدره وهو يقول:

إبتعد عني .

سقط الرجل على الأرض ... وفي هذه اللحظة اندفع قرناؤه بوحشية ، وانقضّوا على الآخر يوسعونه لطماً وركلاً ... لم تجد محاولات

الفريق الآخر في إنقاذه ... كاد يموت بينهم لولا أن النعش لاح خارجاً من بوابة المسجد ...

تدافعوا نحوه ، وتكتلوا أمامه يسدون عليه الطريق ونحيب النساء يحفه بنبرات خفيضة... برز شيخ المسجد في وجوههم ... قال بنبرة واعظة:

دعوه ، إنه يعرف طريقه جيداً ... فقط احملوه وهو سيمضي بكم ...

تدافعوا وتكتلوا أسفل النعش كتلتين منفصلتين ... تحرك خطوة مستقيمة إلى الأمام ثم تململ منحرفاً جهة اليمين ... ثم اليسار ... ثم عاد إلى اليمين ... توقف يميناً تنتابه هزة عنيفة.

بدا وكأن قوة تدفعه وأخرى توقفه ... في الجهة اليمنى أسفل النعش كان يقف رجل ضخم الجثة قوي الساعدين ... لمحه رجل في الكتلة الأخرى وأعزى إليه انحراف النعش ... تخلى عن مكانه مؤقتاً واندفع نحوه يصدمه بكتفه ... اختل توازن الرجل الضخم وكاد يسقط ، لكنه تماسك بالقوة الحاملة للنعش ، فانتهز الآخرون الفرصة وتحركوا جاذبين النعش جهة اليسار ... عاد الرجل الضخم إلى موضعه ... أمسك النعش بيد وقبض بالأخرى على تلابيب الآخر يمنعه من العودة إلى مكانه ... تحت وطأة قبضة الرجل القوية لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يقفز في صدره ... طواه الرجل بذراعه لاوياً رقبته تحت إبطه ... شعر بالاختناق ... أخذ يسعل وروحه تكاد تخرج ... جرجره الرجل مسافة قصيرة حرص على أن تكون جهة اليمين ثم تركه يسقط تحت الأقدام ...

في المؤخرة كان هناك اثنان متجاوران ينتمي كل منهما إلى جماعة من الجماعتين أحسا ألّا دور لهما في توجيه النعش سوى مجرد سنده من الخلف ... وشعر كل منهما أن الإطاحة بالآخر ربما مكنته من المساهمة في توجيه النعش حسبما تريد جماعته.

لكز أحدهما الآخر بكوعه في جنبه ... تأوه الآخر ثم دفعه بكتفه ... نطحه الأول في رأسه ... نطحه هو في أنفه ... سال الدم من أنفه على فمه .. ترك النعش وأطبق بيديه على رقبته ... ترك الآخر النعش وأنشب أظافره في وجهه ... جرفتهما الجموع ... داستهما الأقدام .

استمر النعش يمضي بحركة دودية بطيئة مخلفاً وراءه أثراً بارزاً من الأجسام البشرية الساقطة والممددة ... وبدا أن الطريق لا نهاية لها ، إذ أن النعش دائماً يتخذ حركات عرضية ، والمحصلة أنهم تقريباً في نفس المكان .

خرج رجل من قلب الجموع تبدو عليه إمارات الجد والعقل ، صاح بهم يستوقفهم ويرشدهم ...

حرام عليكم هذا الذي تفعلون ... اتقوا الله .

توقفوا صامتين برهة ... ثم صاحوا بصوت واحد :نحن أولى بدفنه ...

قال بوقار :

ألم تسمعوا ما قاله الشيخ ؟

صاحوا بنفس الصوت الواحد :

إنهم يحرفون مساره .
قال الرجل :
فلتتركوه جميعكم إذاً .
صاحوا ...
ما هذا الذي تقول ؟
أنتم تعوقون حركته .
من سيحمله إذاً ؟
كما قال الشيخ ، هو يعرف طريقه .
لكن لابد من حمله .
هو الذي سيحدد .
بدهشة وذهول:
كيف ذلك ؟
ضعوه أرضاً ولتجلس كل جماعة في ناحية ... والجماعة التي ينحرف نحوها تكون هي الأولى بحمله ودفنه .
في وضعين متقابلين على جابني الطريق جلس الفريقان وعيونهما تحدقان في النعش الممدد في وسط الطريق .. .مضت فترة غير قصيرة والنعش ساكن في موضعه بغير حراك .
قال أحدهم لآخر وعيناه ترمقان الرجل باسترابه
أنا غير مطمئن لهذا الرجل .
– لماذا ؟
– لا أثق في كلامه ... هل نسيت أنه منهم .

– لن نخسر شيئاً ، فهم أيضاً ينتظرون مثلنا .

قال بخشية ...

– وماذا لو انحرف ناحيتهم .

أجاب بإصرار ويقين ...

– لن يحدث ذلك أبداً .

نظر إليه باستغراب وقال ..

ولم لا يحدث ذلك ؟

قال ساهماً ..

لا أدري ، لكني أشعر بذلك .

– وماذا لو حدث ؟

برقت عيناه وقال بتحد ...

سأذبحهم واحداً واحداً .

قال ذلك وأخرج من ملابسه سكيناً حادة ...

في الناحية الأخرى من بين ثلاثة رؤوس متلاصقة خرج صوت:

ما كان هناك داع لهذا الوضع الذي نحن فيه .

رد صوت آخر ...

ربما انحرف نحونا .

عاد الصوت:

لم نكن بحاجة إلى هذا الانحراف ، كان يمكننا أن ننتزعه منهم بأيدينا.

نطق الصوت الثالث..

هل حقاً سيتجه إلينا ؟

– المهم ألا يتجه إليهم .

– ربما اتجه إليهم .

– مستحيل ... حتى لو أن مدافنهم تؤدي إلى الجنة ، ومدافنا تؤدي إلى جهنم ، لن نتركه لهم.

– وماذنب الميت ؟

– لا شك أنه في صفنا ، وأعتقد أنه يتفق معي في الرأي .

– إذاً لماذا لم يشر إلينا ؟

– لا تقلق سيشير ... حتما سيشير .

مر زمن طويل استنفدت فيه الجماعتان كل الحيل والألاعيب ، وثرثروا كثيراً حتى بات الكلام أمراً لا يطاق ... أعياهم التركيز فتراخى وعيهم ، وأطلقوا لخيالاتهم العنان ... أرهقهم التحديق فخفتت حدة نظراتهم حتى أدرك بعضهم النوم .

فجأة ، قفز واحد من الفريقين مهللاً :

– إنه يشير إلينا ... يشير إلينا .

هاج الجميع وماجوا ... انتبهت العقول المأخوذة ، وصحت العيون الغافية ... وحدّق الكل بنظرات نارية ... ورغم أن النعش بدا ساكناً في ذات الموضع دون أن يتحرك قيد شعـــــرة إلا أن واحداً من الفريق الآخر صاح بجنون ...

– إنه يشير إلينا نحن ... نعم إلينا نحن .

لم يجد باقي الفريقين أمامهم إلا التسليم والانسياق في المعمعة لعل الأمر يجدي...

– إنه يشير إلينا .

– بل إلينا نحن .

أقسم البعض بالله ... وحرّم البعض على جوفه الطعام ... بينما طلق أحدهم زوجاته الأربع ... وعاد التراشق والتناحر يستشري بينهم مرة أخرى ، وكاد الالتحام يعاود كرّته لولا أن الرجل الوقور صاح فيهم بقوة طالباً منهم السماح له بالحكم بينهم ...

وافق فريق بينما جأر الفريق الآخر بالرفض قائلين :

إن كان لابد فرجل منا .

احتج الآخرون ..

رضيتم به حكماً منذ البداية فلترضوا بحكمه إلى النهاية .

صاح الأولون ..

إنه رجلكم وحتماً سينتصر لكم ...

قال الرجل بذات الوقار ...

فليخرج منكم رجل ويشاركني الحكم .

اضطرب نظام الفريق الأول ... ثرثروا فيما بينهم وتململوا ... تداخلـــــــــــوا وتخارجـــــــــوا ... ثم خرج من بينهم شاب متوسط العمر قيل أنه يحمل شهادة جامعية .

ربت الرجل على كتف الشاب بأبوية وقال له:

أشك أنك درست الهندسة ... أليس كذلك ؟

أجاب الشاب بأدب:

نعم .

استطرد الرجل .

اسمعني جيداً... لو أننا أحدثنا خطاً مستقيماً يمر بمؤخرة النعش ثم قسنا الزاويتين المحصورتين بين طول النعش والخط المستقيم لأمكننا أن نعرف إلى أي الفريقين انحرف ...

حملق الشاب في عيني الرجل ذاهلاً ، ولم يقو على الكلام ...

أحس الرجل بدخيلته فقال موضحاً ...

لو كان النعش منحرفاً إلى الجهة اليمنى مثلاً فإن الزاوية اليمنى المحصورة بينه وبين الخط المستقيم ستكون أقل من الزاوية الأخرى ... والعكس.

هز الشاب رأسه بالإيجاب وإن بدا أنه لم يزل غير فاهم ...

أمسك الرجل بقطعة من الحجر الجيري وشرع يرسم خطاً مستقيما ... وما أن تحركت يده مسافة سنتيمترات قليلة حتى زعق واحد من الفريق المقابل ..

لا ترسم أنت ... دعه هو يرسم .

ترك الرجل الحجر بتسليم ، ودعا الشاب إلى رسم الخط .

هتف الآخرون ...

لا ، بل ارسمه أنت ... إن يده لرعناء ... ارسمه أنت .

توقف الشاب حائراً وعيناه تترددان بين هذه الجموع وتلك ... أشار الرجل عليهم بالصمت وقال للشاب أن يرسم .

بعد إحداث الخط تقدم الرجل يقيس الزاوية اليمنى ... صاحوا به ... دعه هو الذي يقيس أيها الماكر ... ضاق الرجل بهم لكنه تماسك ، وترك الأمر للشاب.

احتج الآخرون بحرقة ، وبكى بعضهم من شدة التأثر وإحساسه أن الأمر نفد من يدهم وأن النعش في سبيله إلى الدفن هناك ... وقال أحدهم وهو يدس رأسه بين ركبتيه ...

لا أدري بأي وجه سأقابل الناس ... إنه عار لن يمحوه بكاء العمر ...

وأخرج آخر مسدساً وصوبه نحو الشاب قائلاً ...

قبل أن ينطق بكلمة ستكون رصاصات هذا المسدس في صدره .

انتزع منه آخر المسدس وقال :

هل جننت ... فلننته من هذا الميت أولاً حتى نفكر في آخر .

جعل الشاب يقيس الزاوية ، وقسمات وجهه تنطق بالحيرة ... طال زمن القياس حتى تسرب القلق إلى الجميع ، وخفقت قلوبهم بوجل .

رفع رأسه حائراً ... سأله الرجل ؛

كم مقدارها ؟

ارتبك قليلاً ثم خفض رأسه متشاغلاً بالقياس ... تصايح بعض الأفراد بشك مغيظ ...

إنه يستخف بعقولنا ..

بل يبدو أنه لا يعرف شيئاً.

كلا إنه يضمر لنا خدعة .

رفع رأسه إليهم مرة أخرى ...استطالت الرقاب ، وتطلعت إليه الرؤوس ، وتدلت بعض الألسنة ببلاهة ... لكنه لم ينطق بشيء ، وانتقل إلى الزاوية الأخرى ... كاد الجنون يركب الرؤوس لولا إشارات الرجل الدائمة لهم بالسكوت ، وإحساسهم أن الشاب لابد وأن يتكلم .

انتهى من القياس ، وانتصب قائماً يسترد أنفاسه المرهقة ، وكأنه انتهى من عمل شاق.

سأله الرجل :

أيهما أصغر ؟

ترددت عيناه بين الجمعين ، واهتزت شفتاه تشرعان في التكلم ... اجتاحت المكان موجة من الهتاف والصراخ .

إنها اليمنى .

بل اليسرى .

اليمنى ..

اليسرى ..

اصطخب المكان بضجيج مجنون ، وبدت الألسنة تطلق الألفاظ بغير وعي أو تدبر ... كلمات صماء لا يدركون لها معنى سوى أنها تحقق ميلاً في نفوسهم وتسكت صوت الشاب الناطق بغير ما يريدون ... تدافعت الألسنة تطلق لفظتها السحرية الأثيرة حتى أن امرأة عجوز فاقدة البصر أخرجت لسانها العتيق وقالت بحماس:

أُقسم بالله أنها الشاوية اليمنى .

أشار الرجل عليهم بالسكوت ، وعاد يسأل الشاب ..
أيهما أصغر ؟
تقلصت عضلات وجهه بضيق واشمئزاز ، وبدا عليه الإعياء والغثيان ... سد أنفه بتوتر وانفعال ، وأمسك بطنه يعتصرها بأصابعه ... ثم أولى ظهره إليهم وأطلق ساقيه للريح ... وقبل أن تقتلهم الدهشة ... وقبل أن يلوذوا بصراخهم الذي لا يتوقف دهمتهم أولى موجات العفونة ، وغزتهم مشاعر القرف والتقزز الداعية للغثيان ... وتملكهم الضعف والخور ، ولم يبق لديهم إلا البصاق فتراشقوا به .
برز أحدهم يمسح فمه بملابسه ، ويبتلع ريقاً مراً
هذا ما جنيناه من عنادكم .
رد آخر .
-أنتم المعاندون .
لقد صرنا مضغة في الأفواه .
بسببكم ...
بل بسببكم أنتم ... أنتم الذين كفنتموه .
أتعيب على كفننا وهو من أغلى الأكفان .
بسخرية ومرارة ..
-ها هو الدود يشهد على ذلك .
أغاظته هذه العبارة ... أمسك بملابسه بغل: ماذا تقول يا وقح ؟
أمسك الآخر بملابسه:

أنا وقح يا عفن ؟
تناطحت رأساهما ... تبادلا لكمات بطنية ، وقاما بمحاولات فاشلة للركل ...
وبينما كان كل منهما يبحث في ملابسه عن أداة تحسم الموقف لصالحه ، اكتشفا أنهما الوحيدان الواقفان في نهر الطريق ، وأن الجميع قد انفضوا من حولهما ، ولم يزل النعش ساكناً في موضعه ينفث رائحته الكريهة بكثافة ...
توقفا عن الشجار ، وتبادلا نظرة ميتة ... ثم اتجها نحو النعش ...
كان كل منهما يسند النعش بيد ويسد أنفه بالأخرى ، ومضيا في موكب جنائزي فريد... تحفه الكلاب من اليمين ... والقطط من اليسار ... وتظلله طيور جارحة تنهش في كبد السماء...

ثقب في رأس إنسان

عندما صحوت من نومي هذا الصباح ... وأخذت حمامي ... وتناولت الإفطار ... وارتديت ملابسي ... ومشطت شعري ... ونزعت "فيشة" الثلاجة من القابس ... وأغلقت مفتاح الغاز ... وأوصدت باب الشقة ... وخرجت إلى عملي ... لم أكن أعلم أني قد نسيت شيئاً .

الأوراق متراكمة فوق مكتبي ... وقلمي يحل شفرات الوزارة ... الموظفون يتبادلون النكات ... تلوح على شفتي ذات الابتسامة ، وألوذ بالضحك إذا ما دعت الحاجة ... وربما شاركت بواحدة إذا ما انتعشت ذاكرتي أو نضب معين الهزل لديهم ... لكني أقتصد النظر إليهم...

وحديثي قليل متحفظ ... يروعني سؤال مباغت يكشف عن تلك الفجوة التي برأسي .

خطواتي تتعثر بالهواء ... والممر المؤدي إلى حجرة رئيسي طويل مزدحم ... واحتمالات الاحتكاك بالآخرين كبيرة ... واحتمالات السؤال المباغت أكبر ... والهوة التي برأسي يخيل إليّ أنها تتسع وأنها أصبحت مكشوفة للعيان ، وربما ابتلعتني .

ملامح رئيسي لا تنذر بخير ... أوراقي في يده شهادة ميلاد أو شهادة وفاة ... رمقني بنظرة غريبة وأطال النظر في وجهي ... هالني الموقف وشعرت أنه نفذ إلى رأسي وأدرك الفراغ المطوي بداخلها...

حاولت إخفاءها ... تشاغلت بالحيود عن مستوى بصره ، وقلبي يدق بإنذارات الرفت والضيق والحرج ... افتر ثغرة عن ابتسامة محدودة وألقى بعلاوة غير متوقعة في أذني ... تهلل وجهي وأسرعت بالخروج محطماً زمن الوقوف ... قاضياً على فرصة سانحة للسؤال. طريق العودة محفوف بالمارة ... والحياة تضج بشكل مثير ... بائع الصحف يضع حجراً فوق الجرائد ... بائع الزهور يسدد تيار الماء نحو باقات الورد ... خفير الحديقة العامة يغط في نوم عميق ... رجل المرور يلوح بيمينه ... بائع السجائر يسحب علبة من فوق الرف ... أصابعي تحك ذقني ... ومازلت أعاني ذلك الصدع الذي أدركته صباح اليوم وأنا في طريقي إلى عملي ...

لا أدري كيف أمضيت من حياتي كل هذا العمر ورأسي تخلو من هذا الشيء ؟

كيف كانت تخرج مني الأنفاس وتدخل ؟ .. وكيف كان الدم يدور في جسمي ؟

كيف كانت رأسي تجيز لنفسها أن تحكم على الأشياء ؟

ترى ، هل تعانى كل هذه الرؤوس ذات الفجوة التي برأسي ؟ .

وكيف تمضي الحياة بمجموع هذا الفراغ ؟!

تلك الفتاة الي تبتسم للمارة في الجهة المقابلة ... هل تحمل ذلك الشيء ؟

وهل من الممكن أن تند الابتسامة عن وجه يطوي خلاء ؟

عاودني الشعور بالخشية ... الأفراد يتكاثرون من حولي وحب الاستطلاع عادة يمارسها الجميع ... وهيئتي تستفز العارفين وغير العارفين .

انحشرتُ داخل الأوتوبيس بصعوبة ... الزحام يخنق الأسئلة ويشتت الأفكار ... لكنه يخلق نوعاً من التركيز ... المساحات الضيقة المتاحة للأفراد تسمح بممارسة بعض التفكير ... لكنه تفكير قاصر ... محدود بأنفاس الآخرين .

شعرتُ ببعض الارتياح ... جعلت ُ عينيى تمعنان النظر في الأجسام المتلاحمة وعقلي يتمثل القوة الدافعة للزحام . ليست هذه هي المرة الأولى التي ينضغط فيها جسمي في زحام الأوتوبيس ... وليست هي المرة الأولى التي أقف فيها متأملاً هذا الخضم البشري ... بل إن حياتي كلها عبارة عن مجموعات متبادلة من الضغط والتأمل... ويتداخل الأمران في بعض الأحيان فيصير الضغط نوعاً من التأمل ، ويصير التأمل نوعاً من الضغط ... وأصيرُ شيئاً آخر. لكني الآن أشعر بالغربة وتنمو بداخلي رغبة ملحّة في طي الطريق وتجاوز الزحام والارتماء في أحضان الكتاب ... فكل دقيقة تمر تزيد في عمر الثغرة التي في رأسي .

المسافة المتبقية بيني وبين المنزل تزيد ألمي ، وحركة الأوتوبيس البطيئة تضيف إلى نفسي كدراً فوق كدر ... أحاول رأب صدعي في التو ... في هذا المكان ... رأسي تشق طريقاً وعراً بين الأكتاف والرؤوس ، تستطلع اللافتات المارقة أمام النافذة ... علّ الإجابة

تكمن في كلمة ... أو حرف ... وربما حسم الأمر أحد الرموز التي تملأ الإعلانات ... وربما كان الحل في هذه الجريدة المطوية هناك أو هذا الكتاب البارز من الحقيبة المدرسية .

أعيتني الحيل وتسرب إليّ اليأس والملل ... فرملة مفاجئة أوقفت الأوتوبيس ... ترنّح الراكبون إلى الأمام متدافعين ... متخبطين .. فقدتُ توازني كعادتى وكعادة الجميع عندما يتوقف الأوتوبيس وتنتقل الأجسام من حال الحركة إلى حال السكون بغتة وبغير مقدمات .

فقدت توازني كما فقدته بالأمس وكما فقدته منذ سنوات ... لعل تلك الفجوة المكتشفة حديثاً هي علة الخلل الملازم لتوازني في مثل هذه المناسبات ... لكن هل يحمل هؤلاء فجوات مشابهة ؟ عموماً هم ما يلبثوا أن يستردوا اتزانهم ليعاودوا الركوب في اليوم التالي ... ولا يزال السائق يمارس حركة الذهاب والإياب المتكررة وكأنه يسير في طريق دائرية لا نهاية لها.

الحارة المؤدية إلى منزلي لا تكف عن الأسئلة ، وشهادتي الجامعية عنوان الحكمة المفتقدة لديهم ... الماضي لا يهمهم ، والمستقبل تطويه سجلات الغيب ...

فلا يسألون إلاّ عن قضايا اليوم ، بل قضايا اللحظة الراهنة ... والإجابة دائماً جاهزة ... لكن من يضمن لي ألّا يصحو أحدهم من نومه وقد تلقى وحياً تاريخياً ، فيحاول أن ينبش في هذه المنطقة الفارغة من رأسي. من يضمن لي ألاّ يأتي أحد تلامذة المدارس متغنياً بنشيد فرعوني مصحوباً بسؤال فضولي لا مقابل له في

قاموسي الفقير . من يضمن لي ألاّ تتوقف يد الخباز وتستقيم قامة الحداد ويخرج البقال عن حانوته ليسألني أو يسألوني جميعاً دفعة واحدة ... سؤالاً واحداً لم يخطر لهم يوماً على بال . قانون الصرف يقول باستحالـــــة هذا الفــرض ... فلا يمكن أن يتقدم كل المودعين في ذات الوقت ليطالبوا بودائعهم ... لكن ماذا عن قانون المعرفة؟
هل يمضي بذات المنطق ويقول بنفس الاستحالة ؟
الكل مأخوذ في دوامة العمل ، والتحية باتت عملية آلية كإشعال الفرن والطّرْق على السندان وبيع أعواد الثقاب . لم أجد صعوبة في اجتياز فضولهم الذائب في عرق السواعد والجبين ... ولم تسفر قوى الاستطلاع الكامنة في أعماقهم إلا عن خطاب مكتوب بالفصحى حوّلته إلى العامية ، وتلقيت لمسة حانية على كتفي ودعاء من القلب بالسعادة وطول العمر.
خطواتي المضطربة المتعجلة التهمت درجات السلم المؤدي إلى شقتي، وجسدي المنهك اقتحم الباب بقوة الخلاص ... أحكمتُ رتاجه وتهالكتُ على المقعد القريب . أخذتْ أنفاسي تتلاحق بقوة ... تنفست بوعي وارتياح لأول مرة ... تبادلت حديثاً ودوداً صامتا مع الأشياء ... استوعبت كل المفاهيم وأدركت العلاقات الكامنة وراءها . أدركت فلسفة المقعد وعرفت لماذا يقبع خلف المنضدة بينما ترتكن المقاعد الأخرى حول الجدران ... ولماذا تعلو اللمبة كل الأشياء وتتوسط سقف الحجرة بينما تنحني الأباجورة فوق مستوى الفراش متخذة ركناً قصياً في غرفة النوم ... ولماذا تتجاور أشياء بينما تعلو أشياء أخرى

فوق بعضها البعض... وتتبعت بعيني طلاء الجدران ، وحاولت أن أضع تفسيراً لإصرار الحجرات على اتخاذ الأشكال الهندسية المربعة والمستطيلة ، وتساءلت عن عدم اتخاذها الشكل الدائري أو المثلثي مثلاً.

لكني عجزت عن فهم بندول الساعة ، وبدت لي حركته لغزاً محيراً لا سبيل إلى استجلاء أسراره ... لعل الحركة هي سر العلاقة المبهمة التي بيننا ... فالأحاديث الصامتة هي السمة الغالبة للمكان ، أما الزمان فلا يكف عن الضجيج أبدا. شيء واحد أدركته بعمق وملك عليّ كل أحاسيسي ... أدركت أن هذه الحركة المتكررة لا تعني إلا أن الزمن مازال يمضي ، وأني مازلت على نفس الحال منذ إدراكي لذلك الشيء الغائص في أعماقي .

ضايقني ذلك الشعور ، وكرهتْ قصوري واكتفائي بالوقوف من الأشياء موقف المتأمل الساكن ، وخيل إليّ أن الأشياء تتبادل مواقعها وأدوارها ، ولعليّ صرتُ مقعداً يستشرف لحظات الجلوس ... ولمحتُ المقعد المقابل مطرقا متفكراً يتوثب لإصلاح حافته التي أكلها البندول ...

تخلصت من تخشبي واندفعت راكضاً نحو مكتبتي المتواضعة ... جعلتُ أفرز الكتب وأقلب الصفحات ... الأتربة تغطي الأسطح العليا للكتب الظاهرة ... أما الكتب المختفية فقد تآكلت بعض أوراقها ، والتصقت بثناياها أجنة الحشرات.

خضتُ تلال الأتربة ، وقاتلتُ الحشرات ، فقضيت على جيل كامل طامح للحياة، فانحسر المستقبل عنهم ... شعرتْ بسعادة بالغة ، فهي المرة الأولى في حياتي التي أحس وكأني استطعت أن أوقف الزمن ... ضحكت في نفسي وأنا أتخيل مشهد البندول ، وهو يصرّ على الحركة في مكان سقط المستقبل من حساب عمره.

انزلقتُ بين الكتب في نشوة غريبة وأخذت أتقلّب في مرح طفولي ... تمددتُ على الأرض ... توسدت الكتب ... تغطيت بالكتب ... جعلت أعابثها بلا هدف ... بلا رغبة في قراءتها... في كشف محتوياتها ، والاطلاع على أسرارها المطوية بين أغلفتها ... لأول مرة أجد لها استخداماً آخر ... ودون حاجة إلى النيل من عذريتها ... أمسك هذا وألقى ذاك.

في غمرة سعادتي انقبض قلبي لما تذكرت أني مازلت أفتقد إلى ذلك الشيء ... تخللني إحساس غريب بأني كتلة مادية يخترقها فراغ ... جعلت أتصور حجم هذا الفراغ وأحصى عدد الفراغات الأخرى التي يحتمل أن تكون موجودة . راعتني النتيجة التي توصلت إليها من أن الفراغ أكبر من المادة ، وأن الوجود أقل من العدم ... انتفض جسدي يعاني مشاعر متناقضة... مزيج من القوة والخور ... حاولت أن أحقق بعض الاتزان بأن أملأ الفراغ ، وأضيف إلى الوجود وجوداً ... لكني تذكرت الفراغ الذي يلف الحجرة والوحدة التي أقاسيها والذرية المستحيلة وطقوس الرهبنة التي أمارسها في صمت ، منذ أن حكمتُ على نفسي بالسجن في فردوس غير مأهول ... وقد ظننت أن

الزمن قد توقف وأن المكان قد تحرك وأني لموزع بين عادات رتيبة جامدة ... تفرست وجهي في المرآة أحاول أن أعثر على الخط الذي خلفه الزمن في هذا اليوم ... تفرست الحجرة أستكشف الموجة التي أحدثها مكوث جسمي في الفراغ ... ضجت رأسي بالخيالات وأخذت تنتفخ وتنتفخ كالبالون ... كبر حجمها بشكل مفرط بينما أخذتْ أطرافي في الضمور ، حتى صرتُ محض رأس كاملة الاستدارة... وبقوة مجهولة تدحرجتُ إلى الجدار المقابل ... اصطدمت به ... ردني ... تدحرجت إلى الجدار المقابل اصطدمت به... أعادني إلى الجدار الأول بسرعة أكبر ... توالت الصدمات ، وتزايدت السرعات وبدا لي أن المسافة بين الجدارين تضيق حتى شعرتُ وكأني في بطن جدار واحد أعاني ضغط تكوينه الأسمنتي الصلب... تفكرت بانزعاج في نهاية هذه الحركة المطردة المتنامية وتساءلت عن مصيري لو أن ناموس الحركة مضى بانتظام ... أنّى لي بالقوة التي توقفني وأنا أدور وحيداً في حجرة محكمة الغلق ، والحياة تدور بالخارج في اتجاه آخر مخالف ؟

هل تموت الحارة وتتوقف الوزارة وتتداعى حضارة هذا البلد المناضل ؟

لن يوقفني سوى الإرادة أو الموت ... أما عن الإرادة فلا أشعر لها بوجود ...

وأما عن الموت فهو بالطبع لا إرادة لي فيه ... كدتُ أفقد الثقة في نفسي ووجودي ، لكني تذكرت أني أتحرك بقوة مجهولة ، فلا شك

أني سأتوقف بقوة مجهولة أيضاً ... شعرت بالارتياح للمرة الثانية ... فقد نجحت في إيقاف الزمن منذ "قليل" وها أنا ذا أخرق قانون الحركة القائل بلا نهائيتها .. لم يبق إذاً سوى قانون آخر أخرقه وأصير بعده رجلاً خارقاً للطبيعة ... لاحت علي شفتي ابتسامة فرحة ، وبدأت أحاسيس الألم تستحيل إلى لذة ، ونمت في نفسي نشوة غريبة ... تزايدت حتى جاوزت منطقة الوعي وتسربت إلى المناطق غير الواعية في نفسي ، فتحولت إلى شبكة كبيرة من الرؤى الملونة ... وبعد إرادتي – المفقودة – فقدت تركيزي ... سقطتُ على رأسي ... وتساءلت متعجباً عن معنى السقــوط على رأسي وأنا مجــرد رأس لا أكثر!!.

دارت عيناي في الحجرة ، تسددان النظر في صميم الأشياء ... تحاولان تدمير الجدران... تفتيت الأجزاء المركبة ... فقد بات الحل في نظري في الهدم لا البناء ... فالهدم يحيل الوحدة إلى كثرة ... والسكون إلى حركة ... ويحل الأشياء من جمودها .

اندفعت بقوة متهورة ، أحاول اختراق الجدار ... صدني جموده ... التحمتُ به في مسافة طويلة من الألم ... أدركتُ أن الألم هو الحد الفاصل بين الإنسان والجماد، بين الأحياء والأموات ... أن المعاناة هي سر الحياة والإنسانية ... وأن الفناء هو النتيجة الحتمية لكل محاولة لخرق نواميس الحياة ... وأن الزمن لم يزل يمضي... والحركة مازالت سارية ... والإرادة استشعرها تفيض في نفسي ...

وأن الحل في الوقوف على القدمين لا السير على الرأس ... ولو كان الأمر كما ظننت لكان البهلوان هو أحكم الحكماء.

جعلتُ أعيد ترتيب الكتب وشرعت في رحلة جديدة للبحث ، ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الحقيقة التي غابت عني كل هذه السنوات والتي شطرتني هذا الصباح وأحدثت في رأسي فجوة عميقة توقف العالم عند حافتها ، وسقط فيها محتوى نفسي الملتهب.

نفضتُ الأتربة من فوق الكلمات ، ثم ضممت الكتاب إلى صدري وخلدتُ للنوم في راحة تامة.

في صباح اليوم التالي ... صحوتُ من نومي وألقيت نظرة على الشارع من خلال النافذة ... لم يكن ثمة شيء غير عادي ... العربات تحتشد في وسط الطريق ... الناس متكتلون على الأجناب في شروع إلى الركوب وبداية يوم عمل جديد.

بائع الفول يحرك "الكبشة" داخل "القدرة" .. بائعة اللبن تصبه في زجاجة ... خبز يبدو محمولاً فوق رأس أحدهم ... متسول المنطقة يحتل مكانه الأثير ، ويده مفرودة في ذات الفراغ.. حتى سباب الأمس يلفظه نفس الرجل اليوم .. وها هو حذاؤه يطير في الفضاء وعما قليل سيحط على أرض شرفتي، وكعادتي لن أتردد في إعادته إليه مرة أخرى، كي يجد ما يقذفه في صباح الغد .

نظرتُ في المرآة... نفس العينين والأنف والفم ... نفس الوجه ونفس الجسم... نفس الصورة التي تطالعني كل صباح منذ سنوات

مضـــــــت ... نفـــــس الهيئة التي رأيتها بالأمـــس...
لا شيء ينذر بجديد ، وليس ثمة شيء غير عادي.
لكني رغم ذلك ... أخذت حمّامي ... وتناولت الإفطار ... وارتديت ملابسي ... ومشطت شعري ... ونزعت "فيشة" الثلاجة من القابس ... وأغلقت محبس الغاز ... وأوصدت باب الشقة... وخرجت إلى عملي ، وأنا أعلم أن أحمس هو هازم الهكسوس!!

البيدق والصرصور

تجمدت أصابعه ... وتهدلت ملامحه ... وتخشب جسده ... ورذاذ الماء المتطاير يبلل صدره المكشوف وعظامه البارزة ... المتمردة .
حملق في الصنبور بعينين ذاهلتين ورأس مشتعل وذهن مشتت ... نطق بصوت مشروخ: الماء يتدفق ... يتدفق .
"الماء دائماً يتدفق ... فما الجديد؟"
نعم دائماً يتدفق ... لكني لا أرتاح لهذا التدفق ... أشعر أن ثمة شيء غير عادي.
ما الجديد ؟
ما الغريب ؟
حركة الماء لا تنبئ بخير ... تياره المتدفق يوحي إليّ بشر... بالخراب والدمار .
"أنت واهم.".
الماء خدعة ... الظمأ نزوة ... الصنبور بدعة ...
الحياة خطة محكمة ... الماء سم موجّه ... ونحن كائنات مستهدفة :
"ماذا أصابك؟"
أصابني مس من الحقيقة ... اليوم رفعت عني الحجب وتبدت لي الأشياء عارية ... يكفيني أن الماء لم يعد يحرك في نفسي شهوة الشرب.
"لقد جننت".

لقد عاد إليّ صوابي...

لا أنكر على الماء تدفقه ، لكن ليست هذه هي كل الحقيقة ... نحن لم نشهد غير ذلك... ولا نستطيع أن نجزم أن كل ما نراه هو الحقيقة ... هناك قوة خفية وضعت برنامجاً أزلياً، ضمنته فقرة الماء ... ولم يزل البرنامج يمضي ... ومازال الماء يتدفق ... ولو حُذفت هذه الفقرة، أو زيدت لكان لنا شأن آخر ... لكني مازلت أشعر بزيف هذه الحركة المتواترة وهذا التدفق المطرد ... مازلت أعاني من هذه الخدعة الكبرى ومازالت هذه القوة تعمل على إفساد حياتي...

" لا تكفر ".

الكفر بالشيطان إيمان ...

"حذار من اللعب بالألفاظ"

عندما تخدعنا الألفاظ ، تنفصم العلاقة التي بيننا .

"كما انفصمت العلاقة التي بينك وبين الماء".

اللغة التي بيننا مازالت سارية .. لكني أصبحت أفهمها على نحو آخر.

"أنت تشقى نفسك".

سأتحدى الظمأ.

"ستموت"

بل سيجف الماء.

أحكم إغلاق حجرته ... سد كل منافذ الضوء ... خنق أشعة الشمس ... أدار مراوح الهواء ... بسط رقعة الشطرنج ... بدأ التحدي.

لم يستطع أن يتبين كم من الوقت مضى ، لكن غريزته الداخلية أشعرته بأن ساعات طوال قد مرت به وهو منكفئ على رقعة الشطرنج ... يواجه التحدي الأكبر الذي عزم على الخوض فيه بروح فتيه وحماسة محمومة .

كانت عقارب الساعة تشير إلى انتهاء النهار وحلول الظلام ... أحس بآلام متفرقة على جسده المتكوم ... المتجمد ... شرع في النهوض رغبةً في النوم ... ولشد ما كانت دهشته ، عندما اكتشف أن قطع الشطرنج مازالت كما هي لم تبرح مكانها ... وأن معركته مع نفسه لم تبدأ بعد.

خرير الماء يزعجه ويؤرقه ... قطرات من الألم تسقط على صدره ... تشق قلبه وتسري على بطنه ... تستحدث أخاديد دامية ... ملتهبة ... حركة الضوء راحت في طي الجدران ... وساعة اليد توقفت ... لكنه ابتكر فكرة جديدة ... استعاض عن الشمس بالمصباح الكهربي وصنع لنفسه زمناً خاصاً ... يمكنه أن يطيل النهار ... أو يقصر الليل... أو يجعل فصول السنة ربيعاً... يمكنه أن ينشيء صحراء شاسعة ، وليكن السراب بديلاً عن الماء .

كان دائماً يتعادل مع نفسه ... سواء بدأ هو ... أو بدأت هي ... سواء لعب بالأبيض أو بالأسود ... لكنه في هذه المرة يواجه موقفاً

فريداً ... في هذه المرة يجد نفسه مدفوعاً نحو الحسم ... فإما أن يهزم نفسه أو تهزمه هي ... تساءل عن معنى ذلك المصير ...

هل يُعد فائزاً أم خاسراً ؟

فكر كثيراً ... توصل إلى نتيجة واحدة ... إذا لم يتعادل مع نفسه ، فلن يفوز أبداً.

لم تعجبه الأوضاع المحيطة به ... نظام الحجرة أشعره بالضيق وبأنه مازال يدور في فلك تلك المؤامرة المرسومة ...

لماذا يرتفع الفراش وترتفع المنضدة وترتفع المقاعد؟

لماذا تبتعد الأشياء عن الأرض ؟

ولماذا لا تصل إلى السماء ؟

وإذا كنا نحتل مكان الوسط ...

فهل يتساوى بعدنا عن الأرض ببعدنا عن السماء ؟

فلم لا نمسك بالنجوم ؟

فكر أن يكون محايداً ... فليجلس بين الفريقين ، وليحركهما بموضوعية شديدة... وليكن النصر والهزيمة من نصيب القطع فحسب ... لكنه عاد ليتساءل عن معنى الحياد في صراع هو محوره وموضوعه ... وتساءل عن معنى النصر والهزيمة بالنسبة لقطع جامدة تحركها إرادة معيبة بأصابع مضطربة يعتورها المرض.

هدم الفراش ... وقلب المنضدة ... وطرح المقاعد ... نثر محتويات الحجرة ... جعل من المنضدة فراشاً ... ومن الفراش مقعداً... ثم تناول طعامه فوق المقاعد...

افترش الأرض ، وأقعى أمام رقعة الشطرنج مفكراً متأملاً... محدجاً بنظرات ثاقبة... حرّك قطعة ... قام بنقلة مقابلة ... تأزم الموقف ... استجمع كل طاقاته الذهنية ثم واصل صمته المتأمل .

هذه القطعة تؤدي إلى موقف سيىء ... وهذه تؤدي إلى موقف أسوأ ... أما هذه فتعني موت الوزير ... في حين أن تلك تسلم رقبة الملك خالصة بغير ما جهد أو نزاع ...

كل القطع تقف على حافة الهاوية ... كل القطع تستبق كي تلقى حتفها ... القطعة التي بيده تؤدي إلى سلسلة طويلة من الصدامات تنتهي بموت الملكين معاً . موقف غريب ونهاية أغرب ، وثمة خلل يكمن في بطن الأشياء ...

رفع رأسه عالياً معبراً عن حيرته ... مسلماً بعجزه ، وعدم فهمه لقانون اللعبة الجديد... لكنه اكتشف أن كوب الشاي لم يزل يحتل موقعه القديم ... جهة اليمين !!

هكذا ألقى السر في قلبه ... وهكذا ملك مفتاح الوجود في يده ... صار نبياً لهذا الزمن... مهدياً كان منتظرا ...

كل شيء في الحجرة بدا منطلقاً نحو حقيقة أكبر ... كل الأسرار التي أعيت الإنسان وأعجزت الفلاسفة ... كل الأحكام الظالمة والأفاعيل المخرّبة ... حتى الابتسامة الصفراء التي تلوح على وجه الشياطين ... كلها تبدأ من هنا وتحتل مواقع متباينة في حجرته الضيقة المتهالكة .

أحس بسعادة كبيرة ، ومسئولية أكبر ... لكنه أوحى لنفسه بأن عناية السماء هي التي اختارته ، فهو إذاً أهل لتحمل الرسالة ، وضبط ميزان الحياة المعوج .

حرّك كوب الشاي جهة اليسار !!

طريق مقفرة شقتها مشاعر الظمأ في قلبه ... فجفت أوعيته وزادت مساحة اليابسة في نفسه، فنبتت مشاعر برية وأحاسيس شائكة ... وانفعالات مرة المذاق .

ضعف تركيزه ، وفترت حماسته، وشعر بقليل من الملل ... بنصف تركيز نقل الفيل إلى المربع الأبيض ... بحركة آلية ورتابة شديدة ... نقل علبة الثقاب من فوق الرف إلى الأرض.

لم يبق شيء من أشياء حجرته في موضعه .. لكنه مازال يعاني ذلك الشعور المفزع بالمؤامرة ... وبأن الحياة تمضي نحو الموت ... والوجود يسري إلى العدم ... وبأنه محشور بين القشة والنملة ، وبمزيد من الخداع سيصير حتماً مسخاً مشوهاً .

تهالك منبطحاً فوق الأرض ، وعيناه تمعنان النظر في مظاهر الفوضى التي أحدثها ... رغم الأوضاع المجنونة والعلاقات الخارقة المستحدثة بين الأشياء ، إلا أنها بدت طبيعية ومنطقية ... تسللت إلى نفسه بعض مشاعر الارتياح ... لم يدم ارتياحه .

شيء ما يستنزف قوته ، ويفت في إرادته ... الأوضاع الجديدة مؤامرة جديدة ... الحياة منظومة مدمرة .. كل التباديل والتوافيق

الممكنة للأشياء تؤدي حتماً إلى الموت . لكن ثمة مخرج .. ثمة وضع وحيد ... فريد ... عنده يتحقق الخلاص .

التصق وجهه بالأرض ... أغمض عينيه واستسلم للفراغ المظلم ... رغم أن الأوضاع لم تستنفد بعد ... ورغم أن احتمالات الخلاص مازالت ممكنة إلاّ أن احتكاك رأسه برقعة الشطرنج ألقى في روعه فكرة عبقرية ... فشعر بأن السماء مازالت تسانده... وأن الوحي يقف دائماً في صفه ... وتفكر مليا في شبه غيبوبة ... لو أنه دوّن مجموعة أفكاره العبقرية التي استوحاها في هذه التجربة الفريدة ، لاستطاع أن يضع حلاً لكل معضلات الوجود ، ولحقق السعادة الأبدية لكل الكائنات .

حركة القطع – رغم براعتها – غير مجدية فوق رقعة ثابتة ... لا تتحرك .

الحل العبقري ... والوضع الفريد ، يكمن هنا ... أن يتعامل مع الرقعة ككل باعتبارها قطعة واحدة تتحرك فوق رقعة أكبر غير منظورة ...

زحزح الرقعة أماماً .

الزحف صار وسيلته الوحيدة للتحرك ، والانتقال من موضع لآخر .. الاحتكاك العنيف بالأرض ، مزق ملابسه وجرّح جسمه ... خيوط الدم المنسوجة على جلده بدت لغزاً جديداً محيراً ...

كش ملك ... قالها لنفسه وهو على شفا الموت ... قبض على الملك بأصابع مرتشعة... دار به متحسساً الفضاء ... باحثاً عن بقعة أمينة بعيداً عن الخطر الأسود المحدق به .

في غياب القطع الأخرى تتساوى حركة الملك المحدودة بسكونه الجامد العاجز . لا مفر إلا بأحد طريقين ، إما الخروج عن الرقعة أو الالتجاء إلى البيدق الوحيد – المتبقي – الطامح إلى الارتقاء ...حرّكه نقلة .

واصل زحفه الدامي وحركة البيدق البطيئة ... بدت الرقعة متسعة لا نهاية لها بدت الأشياء بعيدة ... مستحيلة ... وثمة تمرد بين الأشياء ، وخرق لقانون الفرار وطقوس الخلاص...

شعر بحركة غير عادية في الحجرة .. شيء ما تحرك رغماً عنه ودون أن يمر بإرادته. لعله هذا الصحن أو ذلك الصندوق ... وربما كان ذلك الدولاب الضخم القابع هناك.

الأوضاع تغيرت ... أحس بالغربة ... خيل إليه أن الأشياء تحاذره ... تغافله ... وتختلس الحركة من ورائه كي تمض عكس ما يريد ... بدا وكأنه كائن موجّه ضد الأشياء ... تفتق الجدار عن صرصور صغير ... انتقل مسرعا من اليمين إلى اليسار ... أدرك سر الاضطراب ... زحف ناحيته .. لم يستطع أن يزحزح جسده المنغرس بالأرض..

حرّك البيدق ، وهو يحلم بالوزير المرتقب .

قطرات الماء تتساقط في إيقاع منتظم ... رتيب ... يدغدغ أعصابه ويحرّك في نفسه رغبة مكبوته ... اشتعلت وتأججت وباتت تأكل بعضها ... كتلة نارية شرهة الاحتراق ...

بنظرة عفوية لمح أصابعه المبسوطة فوق الأرض في استسلام أبدي مخيف ... بدت غريبة منفصلة عنه ... محض شيء من الأشياء المحيطة .. المتمردة ... جرّب أن يمارس عليها بعض السيطرة ... مر زمن طويل أدرك بعده أنها لم تتحرك قيد أنملة ... ثمة انفصال تم بينه وبينها. ترى كيف يمكنه أن يسيطر على الأشياء ؟!

خيل إليه أنه بإمكانه فرض سيطرته عن طريق الإرادة المجردة ، وتصورات الذهن الخالصة ... أغمض عينيه وجعل يغير الأوضاع بسرعة مجنونة محققاً تراكيب غامضة ... مستحيلة ، أوحت له بنهاية الشقاء ، كاشفة عن بوابة سحرية مفتوحة على الجانب الآخر من الحياة ... خارج نطاق اللعبة المجهدة ... المفروضة عليه دون سابق اتفاق .

رغم أنه فقد الشعور بأعضائه الجسمية إلا أنه كان عميق الإحساس بذاته، لكنه لم يستطع أن يحدد ماهية هذه الذات ...

أهي تلك الإرادة المحضة أم ذلك العقل الخالص، أم هي مجرد عجزه اللا نهائي عن الفعل .؟

بصعوبة بالغة فتح عينيه .. طالعه مشهد الجدار المتآكل الراشح بفعل الرطوبة ، الصرصور يمارس حركته المستفزة في تحد سافر ... الأوضاع كما هي ... بوابته السحرية سُدّت إلى الأبد ... لم يبق

سوى حشرة حقيرة تعبث بمصيره ، وتحرف عجلة الحياة لتمضي نحو الجحيم .

بطريقة خاصة زحف نحو الجدار ... وبإصرار مميت كور قبضة خفية وشرع يقضي على خصمه الأوحد في هذا الوجود .

وقف الصرصور في منتصف الجدار – تقريباً – وقرناه الاستشعاريان لا يكفان عن الحركة .. اقترب منه ، ووقف أمامه لا تكاد تفصلهما مسافة .. التقت عيونهما في لحظة رهيبة التهب خلالها النظر ... أحس به جباراً عتيا ... وأحس بنفسه قزماً ضعيفاً.. في محاولة يائسة رفع قبضته الخفية ليهوى بها عليه ...

في لمح البصر نفذ قرناه الاستشعاريان خلال صدره المكشوف ... ترنح متكوما ملتصقا بالجدار سار على وجهه ... استشعر أنفه وفمه ... دار حول رقبته ... دخل ملابسه ... قطرات الماء ترن في إيقاع منتظم ... البيدق توقف جامداً يفصله عن النهاية مربع أسود ... الملك مختنق لا مكان يسمح له بالحركة ... الأوضاع مقلوبة ... وثمة حركة غير ظاهرة تسعى إلى الظهور .

الخروج

عالمى قطعة سوداء باردة ... وأنا نقطة سوداء هزيلة في هذا السواد الأعظم ... قالوا إن هناك أربعة أشياء تحيط بي تسمى جدران ... وإن كل أربعة جدران تكوّن ما يسمى بالغرفة ...

شرفتي تطل على الطريق العام ... هكذا قالوا ...

يحدها من اليمين بناء مصمت ... ومن اليسار بناء آخر مصمت ... في المواجهة بناء مهجور ... عرفوا ذلك من جدرانه الصفراء المتآكلة ونوافذه المغلقة التي لم تفتح يوماً ...

أما في الداخل فهي تفتح ... أقصد تغلق على ممر طويل ... قالوا إنه ينتهي بجدار صلد جهة اليمين ... وينتهي بجدار مماثل في الجهة المقابلة ... وبدون أن أسأل عن الفرق... قالوا ألّا فرق بين الجدارين في ذاتهما ، لكن أحدهما يمنع الداخلين والآخر يمنع الخارجين ..

لم أسأل عن الداخلين لكني – وبطريقة لا إرادية – فكرت في الخارجين ... أجابوا إن مثل هذا الممر يكون عادة مليء بالحجرات المصطفة على الجانبين ، وإن كل حجرة تكون مشغولة بكائنات تشبهني إلى حد كبير ...

لكني لم أسمع يوماً صوتا ... ولا شعرت مرة بحركة ...

هناك سلم في المنتصف تقريباً ... يبدأ من أسفل وينتهي إلى أعلى ... أو العكس ... لم يخبروني على وجه التحديد ... لكنهم قالوا إن

الهبوط أيسر كثيراً من الصعود وإن كلا الاتجاهين يؤديان إلى نفس المكان ...

أخبروني عن كل شيء ... لكن شيئاً واحداً لم أعرفه ولم يحدثني أحد فيه ... يبدو لي أنهم كانوا دائماً يتجنبون الخوض في كل حديث يمس ذلك الشيء من قريب أو بعيد ...

ماذا يطلقون على شيء أسود هزيل يحتويه سواد أعظم لا نهاية له ... يعاني شعوراً واحداً مؤبداً، ويحس دقات واحدة رتيبة تخرج من مكان ما بجسمه ؟

بمزيد من الجهد ومن خلال اللمس ، أدركت أن هناك شيئاً مستديراً يعتليني، وأن هناك طرفين طويلين يتدليان من جنبيي، ومثلهما طرفين آخرين متداخلين اقتعدهما من تحتي ...

شيء ما يجعلني أشعر أن هذه الأشياء لا تعنيني ... لأني أدركت نفسي قبل إدراكي لها ... فلا علاقة لها إذا بوجودي ...

هل أنتمي إليهم ؟

لا أدري ... فلم أر وجوههم ... فقط أدرك أنهم دائماً يتغيرون... لكنهم جميعهم يتفقون على عدم إخباري بشيء يخصني ...

متى جئت إلى هنا ؟

وكيف ؟

لم يخبروني ...ولم أحاول أن أعرف ... كل

ما أذكره هو أن وعيي نما داخلي فجأة ، فبدأت أدرك بعض الأشياء وكنت لا أدرك شيئاً على الإطلاق .

المرة الوحيدة التي حاولت فيها التحرك ... أن أحصل على معرفة بنفسي ... كبلني شعور مخيف ... أحسست أن هوة عميقة تحيط بي من كل جانب وأن خطوة واحدة خارج الدائرة التي وجدتني فيها يعني ضياعي في أعماق سحيقة ... رهيبة ...

لم أفكر في الهرب ، لأني لا أعرف معنى الفرار وحياتي كلها محض سجن مؤبد...

قالوا لي إن مثلي يموت ... وإن الموت هو نهاية الحياة ... لكنهم لم يحدثوني عما تعني الحياة ...

ذاكرتي الصغيرة لم تفصح يوماً عن محتواها ... لكنها الآن تلفظ كل أشيائها إلى الخارج في حالة هياج شديدة ... ثقب ضيق وخيط رفيع من الضوء تكشّف لي منذ قليل فاضطربت أحوالي .

البقعة الصغيرة التي احتلها الضوء من جسمي أعلمتني أن لوني غير أسود وأن العضوين الصغيرين اللذين يتوسطان الكرة التي تعتليني ، غير زائدين أو ضامرين بل أن بهما سحراً عظيماً وسراً أعظم ...

حاولت جمع كل الأشياء في حيز الضوء ... لم يكن ذلك ممكناً ...

حاولت أن أضع جسمي كله علي أكشف عن سر العلاقة الغامضة التي بيننا .

بإحساس جديد لم أستشعره من قبل ، تحركت نحو مصدر الضوء ... تحسستُ الجدار المثقوب .. دققته ... صدر عنه صوت مختلف عن الأصوات التي تصدر عن الجدران الأخرى... بدا أن شيئاً وراءه يدفعني لاكتشافه ..

الأزمنة الطويلة التي مرت على حالتي السابقة الجامدة ، جعلت من خروجي أمراً فوق المستحيل ... لكن دفعي – رغم وهنه – للجدار ، جعله يتحرك ... ينفتح على مصراعيه ... دفقة هائلة من الضوء الباهر غمرتني ... أخذت نفساً عميقاً ، أدركت بعده أني كنت مكتوم الأنفاس...

لم أستطع أن أتبين شيئاً ... مازلت أعاني شعوراً واحداً رغم اختلافه ... أدور في فلك واحد رغم اتساعه ... لكني أحس أني بقعة ضوئية عظيمة يحتويها ضوء أعظم ...

الجانب البعيد من المنضدة

لن أكون مبالغاً إذا قلت إن المنفضة قد تحركت من مكانها المعتاد قبل أن تستقر هناك عند حافة المنضدة ...

طفلي الصغير يقول بألا غرابة في الأمر ، فكثيراً ما تتحرك الأشياء وكثيراً ما تتبادل مواقعها ... ويذكر أن دمية كبيرة قد رقصت معه لساعات طوال ، وأن دمية أخرى فرت من بين ناظريه ولم تعد حتى الآن .

بينما ترى زوجتي أن الإنسان لا تحركه إلا العصا ، فالأولى ألا تتحرك الجمادات من تلقاء نفسها ...

زميلي في العنبر الأبيض ، أقسم لي أنه يصدقني تماماً ، كما يصدق كل من بالعنبر بعضهم البعض بغير حاجة إلى برهان ... وختم حديثه قائلاً :

لكي تظل بالخارج ، يجب أن ترى المنفضة في منتصف المنضدة .

لم أنم في تلك الليلة ، وظللت أفكر في يده العابثة بالمنفضة محاولاً تذكر أين انتهت... أذكر أنها انتهت إلى حيث بدأت عند المنتصف تقريباً ...

طلبته تليفونياً ... حدثته كثيراً ... سألته بلهفة :

أين توقفت يده ؟

استحلفته أن يتذكر ... أن يركز تفكيره ... أن يكون دقيقاً في ألفاظه ... ألا يلقى بالإجابة جزافاً...بعد فترة طويلة مرهقة أتاني صوته

خافتاً .. تثاؤب طويل ... قطعه صوت ارتطام سماعة التليفون ...في الأيام التالية طاردته بإلحاح ممل ... وحاصرته بسؤالي الأوحد ... لكنه لم يعبأ... في البداية ضحك كثيراً ، لكنه ما لبث أن اتهمني بالجنون ، ولما لم أتوقف هددني بالسجن .

لم يكن هناك بد من اكتشاف الحقيقة بنفسي ... الحجرات المغلقة يمكنها أن تكون مستودعاً للأسرار ، كما يمكنها أن تكون حقلاً جيداً لاكتشاف الحقائق واختراق المجاهيل .

لكن الأشباح المتراقصة خلف النافذة ، والأضواء المتسللة من تحت الباب أفقدتني القدرة على التركيز ...

بكل دقة وعناية ، قستُ المسافة ما بين منتصف المنضدة وحافتها ، وجعلت أحملق في المنفضة ... لم يكن لدي من أجهزة القياس ما يطمئنني إلى دقة النتائج ... لكن ثقتي في حواسي كانت كبيرة ، وثقتي في قدرة المنفضة على التحرك ذاتياً كان أكبر...

استرجعت كل تمارين اليوجا التي طالما قرأتها وحفظتها عن ظهر قلب ... وبدأت أمارس تجربة فريدة كي أكشف حقيقة أزلية طالما غابت عن الأذهان...كان عليّ أن أسقط من ذاكرتي كل الأشياء ... فبدأت بزوجتي ... لم أجد صعوبة في إقصائها بعيداً في غيابات النسيان ... لكن ملامحها العابسة ، وابتسامتها الساخرة مازالت تقف أمامي بذات الروح المتحدية الواثقة من فشلي ...تشاغلت بهدير البحر وعصف الريح وقصف الرعد ... ولما لم تنصرف عن ذاكرتي حشرتُ في رأسي زلازل وبراكين لم أرها ، ثم استعنت بسيف

سحري جلبته من أحد كتب الأساطير القديمة وضربت عنقها بلا رحمة ...

بعدها أسقطّه هو ... دفنته في قاع ذاكرتي وأهلت عليه طبقة كثيفة من الظلمات، لكن قليلاً من شعيرات رأسه المبعثرة استفزتني ، فوضعتها ضمن محتويات "روما" كي يحرقها "نيرون" بجنونه المشتعل ...

تداعت بعد ذلك الأشياء تلي بعضها البعض في سرعة كبيرة ... اختفت الجدران وتبخرت الأثاثات ، وقبل أن يضيع العالم في الفوهة التي استحدثتها بجنوني ، قبضت بذاكرتي على المنفضة ، محافظاً على المسافة الممتدة إلى الحافة، الحافلة بالحقائق والأسرار .

تحللتُ من جسمي وانحصرت رؤاي في مساحة صغيرة فاصلة ... وبخفة شديدة تحركت إلى الأمام صوب الهدف المنشود ... وفيما يشبه الحلم اندمجت بسطح المنضدة ... بدت المسافة متسعة ... حولتُ بصري تجاه المنفضة ... بدت كطود عظيم مكلل بسكون أبدي...

درتُ حولها متتبعاً تفاصيلها الدقيقة ... أخاديدها ونتوءاتها ، محاولاً الكشف عن سر الحركة الخارق للسكون ... البحث عن الخلية الحية الكامنة في قلب الجماد ... كان الغموض يكتنف المنفضة ومساحة المنضدة تترامى إلى نهايات مظلمة يغلفها السواد ...

بزغ وجه طفلي البريء ... يبتسم لي في وداعة ، ويشير إليّ بالركوب خلفه فوق جواده المطاطي ... ورغم أني كنت دائماً أرفض

عرضه المغري بالركوب ، إلا أني في هذه المرة شعرتُ برغبة دفينة تتحرك في أعماقي وتدفعني دفعاً نحو تحقيق غايته الساذجة البريئة .
قفزتُ خلفه ولكزت الجواد بقدمي متظاهراً بقيادته ... فإذا به يصهل بصوت مدوٍ ثم ينطلق بسرعة قصوى... أفقدتني الدهشة القدرة على التوازن وكدتُ أسقط فتشبثت بطفلي وكأني طفل أصغر ... كان يوجهه ببراعة ، ودونما أي دهشة أو غرابة ... اجتاز كل مساحات المنضدة الشاسعة ... توغل في المنطقة المظلمة ... شعرتُ وكأني أطير بجناحين ... ضوء باهر انبعث فجأة ، بدد ستار الظلمة الذي كان يلف المكان ... اكتشفت أني أمضي في فراغ ، وأتشبث بهواء ... سقطت في هوة عميقة ... مازال الضوء يغمرني ويجبر عينيي على الإغماض... رفعتُ يدي في مواجهة الضوء أخفف من حدته على حدقتيّ ... لمحتهما كشبحين يقفان بالباب ... يتبادلان نظرة ساخرة ... ويمصمصان شفاهما شفقةً بعقلي الذي جنّ.
عندما تضيق المدن بالحقائق ، وتلفظ الإنسان ، ففي الصحراء صدر فسيح وقلب رحب ... تطوي الحقائق وتعانق الإنسان ... وتضع نهايات صريحة للمعضلات التي أعجزت المدن ...
حملتُ منضدتي ومنفضتي ، ومضيت في قلب الرمال ... أجتاز طريقاً ممتداً ... وتضاريس صلبة مرهقة ... وأستظل بسماء حمراء ملتهبة . تلاحقني أنفاسي المضطربة... وذاكرتي المشوشة ... أتتبع أثراً قديماً لإنسان ربما حاول قبلي ... تتعثر قدماي بعظام نبح كلبها حتى الموت ...

المسار المُتعرج للأثر الذي أتبعه يوحي بأن صاحبه كان تائهاً وضائعاً ... لكن ذلك لم يثنني عن المضي في طريقي ، فلستُ تائهاً أو ضائعاً ، إنما أملك أثراً كان يفتقده وحقيقة كبرى تنتظر مجيئي منذ زمن بعيد ...

انتهى الأثر تحت سفح جبل رهيب ... شعرت أن صاحبه – بالقطع – لم يغص في الأرض ولا اخترق بطن الجبل ، كما أنه من المستبعد أن يكون قد عثر على ضالته بمجرد الوصول إلى هنا وسط هذه الأكوام من الرمل والحصى وتجاعيد الصخور الحادة الملتهبة ...

رفعتُ رأسي إلى أعلى ... هالني ارتفاعه الشاهق ونتوءاته المدببة ، المشرّعة في الفضاء تتحدى المغامرين والباحثين ... وربما كانت مغروسة في جسد خفي لعدو عملاق يريد أن ينال من رسوخه العظيم ...

كان شديد الشبه بالمنفضة في تجربتي السابقة داخل حجرتي المغلقة المظلمة. انتهى بصري إلى قمته .. شعرتُ برهبة ممزوجة بالتحدي والفضول ... شيء ما جعلني أشعر أن هذه القمة هي خير مكان لاكتشاف الحقائق واستجلاء الأسرار ...

شيء ما بث في نفسي رغبة محمومة بالصعود ... ورغم أني أخشى الأماكن المرتفعة ولم أصعد في حياتي أكثر من درجات السلم المؤدي إلى شقتى إلا أني أحكمت ربط المنضدة فوق ظهري ودسست المنفضة في ملابسي وبدأت رحلة تسلق لا أجيده ...

لا أذكر شعوراً تملكني سوى أني كنت مدفوعاً ... أناطح الصخور برأس حديدية وأخمش صدر الجبل بأظافر حادة دامية ...

انتهت رحلتي الشاقة مع اختفاء آخر خيط من خيوط الشمس ، فتحولت القمة اللامعة إلى بقعة سوداء مخيفة، وباتت الأشياء جميعها محض أشباح رابضة متربصة ، وبدأت أشعر بالضياع الذي طالما رفضته، وماتت لدي الفكرة القائلة بأني أذكى من الذين ماتوا ... وقبل أن تتساوى صرختي بنباح الكلب في الصحراء ، لاح في كبد السماء بصيص من الضوء ، فتكشف لي المكان بوضوح ، وأدركتُ ألا أشباح سواي ومنضدتي ومنفضتي ...

بذات الوضع الأول والذي لم يفارق ذهني ثبتهما فوق الرمال وجلست على مقربة منهما نفس الجلسة اليوجية الشبيهة بجلسة الكاتب المصري القديم المنحوتة في الصخر ...

كان الجو يساعد على التركيز بشكل فعال ... فلم أجد صعوبة في إسقاط الأشياء من ذاكرتي ، لأني كنت قد أسقطتها بالفعل منذ أن قررت مغادرة المدن ...

عيناي محصورتان بين حافة المنضدة والمنفضة ... النسمات الباردة تلفح وجهي ... فكرة العودة سقطت مع الأشياء التي سقطت ... شبحي ربما ثرثرته العجائز ورددته الأمهات كي ينام الصغار ...

مر وقت غير قصير والأوضاع كما هي ... لكني مؤمن تمام الإيمان بأن هناك حركـــــة ما بطيئة لا تدركها العين المجردة ... وأن

الزمن كفيل بإظهارها ... ولما كنت هنا من أجل هذه الحقيقة ، فلا داعي للقلق ...

وحتى لا تفوتني هذه اللحظات الحاسمة ، ظللت محملقاً بشدة غير عابئ بالتعب الذي بدأ يدب في عينيَّ ... ولم يطل الوقت حتى صدق حدسي وشعرت بحركة ... ضاعفتُ من تركيزي وزدتُ من مساحة عينيَّ المفتوحتين ... كانت الحركة على غير ما توقعت ، صادرة من أسفل المنضدة ... كان ظلها الساقط يتلوى بحركة لولبية مقترباً مني... دب في نفسي شعور مفاجئ بالخوف ، وهممت بالتراجع أو الفرار إذا لزم الأمر... لكني ظللت محافظاً على ذات الوضع اليوجي الأثير الشبيه بالكاتب المصري القديم ...

في ذات الوقت تحرك ظلى تلقائياً متجهاً صوب المنضدة ... لم يكن أمامي سوى أن أقف متفرجاً ... وتلاقي الظلان فيما يشبه العناق ، ثم ما لبثا أن تباعدا متنافرين ... وظهرت أجزاء بارزة كانت ضامرة .. دارا حول بعضهما دورة مشوبة بالحذر والترقب ... وفجأة ، اندفعا في لقاء عاصف وأخذا يتبادلان ركلات وطعنات دامية ... عرفتُ ذلك من الدماء التي سالت على وجهي ... وقبل أن أدرك العلاقة التي بين الطعنة التي تلقاها ظلّي والجرح الذي بوجهي ، لمحته يترنح مهزوماً ... يتراجع مخذولاً ... يسقط سقوطاً مروعاً... بعد أن حل الطبيب الأربطة التي كانت تضمد رأسي وجسدي ... كان عليّ لكي أغادر العنبر الأبيض أن أعترف بأن كل الأحداث التي

مرت ما هي إلا مجرد وهم كبير أو كابوس مزعج ... أو أنها محض أفاعيل طائشة ، قُصِد بها تحقيق أحلام طفلي الساذجة البريئة ...
مدخل شقتي يوحي بإعداد خاص تم لاستقبالي ... كل الأشياء لامعة ومنظمة... تحتل مواقعها المألوفة بثبات ظاهر وإصرار فج ..
درتُ بعينيَّ أبحث عن المنضدة والمنفضة ... لم يكن لهما من أثر ... أعلم أنهما لم يغوصا في ظلمات حجرتي، ولم يضيعا في الصحراء ... لكنهما اختفيا بشكل ما مقصود ، على الأقل بعيداً عن ناظري ...
كوتدين صلبين جامدين وقفا في استقبالي يمدان أياد مفتوحة ويصنعان بسمة غير ساخرة ...
مررت من بينهما متجاهلاً أياديهما الممدودة ، وركعت على ركبتي أمام طفلي وهو يلعب بدماه المتناثرة على أرض الحجرة ... رفع يده عالياً مصوباً مسدسه الخشبي نحو الدمي وأطلق عدة رصاصات من فمه ، ثم جرى نحوي وهو يقول محذراً : إنهم يتربصون بنا ... يتأهبون لقتالنا ... يجب أن نتحرك سريعاً ...
ألقيت بنظرة سريعة عليهم ثم نظرت في وجهه محملقاً ... ثم زحفت بجانبه نحو الجهة الأخرى ، ودفنتُ رأسي في مؤخرة المقعد ... أبرزت نصف وجهي محاولاً استكشاف الأمر ... جذبني من ملابسي بيده الصغيرة قائلاً ...
رأسك الكبير هدف سهل لرصاصاتهم ... أخفضه ... أخفضه .

كمشتُ جسمي وانزويت بجانبه ... أطلق رصاصة أخرى والتفت إليّ قائلاً :

ألا تملك سلاحاً ؟

تلفّتُ حولي مرتبكاً ، ونظرت إلى يديّ الخاليتين ثم رفعت كتفي معبراً عن حيرتي : اندفع مسرعاً ناحية المقعد الآخر ... اختفى برهة ... لاحت رأسه هناك ... أطلق رصاصة ثم ألقى إليّ ببندقية خشبية مدعمة بأجزاء معدنية وبلاستيكية

بينما كنت أتأملها ... لمحتُ أحدهم يصوب مسدسه نحوه ... لم يكن هناك مجال للتفكير، بحركة مباغتة وجهت بندقيتي نحوه وأطلقت رصاصة من فمي فأصبته في مقتل...

رفع رأسه هناك ولوّح لي بعلامة النصر ... لكن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ... مازلت أراهم يتربصون بنا ... أطلقت عدة رصاصات في الهواء بقصد التمويه، ثم ركضت نحو مائدة الطعام ... اختبأت أسفلها ... مرت بضع رصاصات فوق رأسي ... زحفتُ أرضاً وقطعتُ شوطاً طويلا مضنيا ... جلست خلف أحد أرجلها الضخمة ... تنفست هواءً مشبعاً برائحة البارود ... من وراء تجاعيدها البارزة راقبته بلهفة ... كان يقاتل ببراعة.. لكن وابلاً من الرصاص كان يحاصره ... صرخت بأعلى صوتي:

– الزم الجدار ، احترس من الأريكة ...

ببراعة شديدة ، تدحرج فوق السجادة ، ثم اندفع بمحاذاة الجدار ... تلقفته بين ساعدي ... كانت دقات قلبه تدق في صدري وأنفاسه تدفيء وجهي ... سألته :

هل أنت بخير ؟

أجاب وهو يرسم ابتسامة مضيئة فوق ملامحه البريئة :

نعم يا أبي ... لقد قتلتهم جميعاً ...

لكم أنت شجاع .

وأنت أيضاً يا أبي ... لم أكن أعرف أنك تجيد إطلاق الرصاص بمثل هذه البراعة.

لاحت على وجهي ابتسامة مريحة وضممته إلى صدري ...

أطل من فوق كتفي ... ، قال وهو يتلفت حوله بحذر:

احترس يا أبي ... إنهم يعدون قنبلتهم الكبرى .

نظرت هناك وتساءلت مندهشاً :

قنبلتهم الكبرى ؟!!

نعم يا أبي ... هيا يجب ألا نضيع الوقت ...المكان سوف يُدمر بالكامل ...

جذبني من ملابسي ومضى أسفل المائدة ، دار دورتين ، ثم صاح :

هيا استعد للعدو ...

ركضنا بسرعة ، وهو يعد : واحد ... اثنان .. ثم انبطحنا ، ودفن كل منا رأسه في الأرض محيطاً إياه بذراعيه ...ثم دوى انفجار مروع ... تناثرت شظايا ملتهبة ... وتطايرت أجزاء من أثاثات

المنزل ... وبعد أن هدأت حدة الانفجار ... رفع كل منا رأسه وتبادلنا نظرة باسمة ...

سألني :

-هل أنت بخير يا أبي ؟

هززت رأسي بالإيجاب وألقيت بنظرة إلى هناك ... ورغم أنهما كانا مازالا يقفان في مكانهما ... يرسلان ابتسامة ساخرة ... يضربان كفاً بكف ... ويمصمصان ذات الشفاه البلهاء المشفقـــــــة ، إلا أني أدركت أنهما قد ماتا منذ وقت غير قصير

ثلاثة وجوه قبيحة

كانت دهشتي كبيرة عندما أشارت إلى المنضدة طالبة مني أن آتيها بالمقعد ، وكانت دهشتي أكبر عندما سارع أخي الصغير بإحضار كوب الماء البارد !!

كعادتي كان علي أن أعتذر عن كل الأخطاء التي لم أرتكبها ، حتى حفل الأمس، والذي حضرته مصادفة وبغير بطاقة للدعوة ، كان علي أن أبعث إليه ببرقية اعتذار عن عدم الحضور !!

علاقاتي بالآخرين دائماً تحسم خلافاتنا لصالحهم ...التعويض الذي دفعته مؤخراً عن المخالفة التي لم أرتكبها ، والجرح الغائر الذي خلفته مشاجرة لم أخضها ، جعلاني أوقن أن في مجرد وجودي سببا كافيا لغريب الأحداث وخارق العادات !!

ولأني لا أجيد الظهور في الإعلانات ولا أحرزت يوماً هدفاً، فقد ظلت مجاعات الصومال ومذابح المسلمين وقرارات الأمم المتحدة ظواهر غيبية لا تحتمل التفسير !!

العملاقان البشريان اللذان حشراني داخل سيارة البوليس ، والوجوه الكالحة والأسئلة الغامضة التي حاصرتني لم تثر دهشتي أو احتجاجي ... كنت متهماً بمحاولة اغتيال شخصية هامة، وارتكاب فعل فاضح في الطريق العام، وسرقة قرط ذهبي من طفلة لم تتعد العاشرة ...

فقط أردت أن أعرف اسم الشخصية أو نوع الفعل أو حتى شكل القرط، لكني أدركت بعد ذلك أن معرفة واحدة من هذه التفصيلات

من شأنها أن تفقدني الصفة الخاصة التي أتمتع بها كمجرم عام، إليه تعزي كل الجرائم التي ارتكبت والجرائم التي لم تزل تدور في أذهان عتاة المجرمين ...

الزنزانة المظلمة التي آوتني حملت إلى أنفاساً ساخنة حائرة وحملت إليها أسئلتي الثلاثة ...

قال لي إنه يمكنه الإجابة عن كل أسئلتي على أن أجيبه عن سؤال واحد يؤرقه...

لماذا القطط لم تعد تخيف الفئران ؟!

القطرة الباردة التي انسابت فوق وجهي كان لها تفسير مفصل لديه وفلسفة كاملة تحيل الظلمة إلى حقائق مضيئة ...

قال إن هناك قطرة ماء تسقط كل سبع دقائق وبضع ثوان ، أي بمعدل ثماني قطرات – تقريبا – في الساعة ، ولو أننا استطعنا أن نجمع هذه القطرات في كوب متوسط الحجم، فإننا بذلك سنحصل على كوب ممتلئ بالماء خلال اليوم الواحد ، فإذا ما تقاسمنا هذا الكوب يومياً لاستطعنا أن نستغني عن الماء الملوث الذي يقدمونه إلينا باضطراد وانتظام ...

وقبل أن أعلق على شطحاته البعيدة أردف قائلاً :

ولو كان السقف يرشح لبنا لأمكننا أن نحقق اكتفاءً ذاتياً ولاستغنينا عن الطعام الفاسد الذي يقدمونه كذلك ...

ورغم أن المنطق الذي بنى عليه كلامه لا يقبل الجدل إلا أني وجدتني أقول :

الماء الملوث والأطعمة الفاسدة تمنع الزنزانة أن تكون غرفة إعدام ، كما يمكنها أن تحل مشكلة آلاف الجائعين ...

قال ثائراً متهكما :

ويمكنها أن تربي وتسمن آلاف الخنازير ...

صعوبة الحوار حتمت علينا افتراض وجود شخص ثالث بيننا نقول فيه رأينا بصراحة...

قال : إن منخاريه الكبيرين يزعجانه ويقطعان عليه كل محاولة للنوم ...

قلت : إنه يأكل بطريقة همجية منفرة.

زعق : إنه يتلصص علينا ...

صرخت : إنه يعبث بملابسنا أثناء النوم ...

تعصب : إنه أفاق ...

تشنجت : إنه قذر ...

تشابكنا وأطبق كل منا على رقبة الآخر وداخلنا رغبة محمومة بالانتقام ... عند حافة الموت ، أدركنا أنه لم يتدخل لنجدتنا ولم يحاول فض اشتباكنا ، وأنه مازال يقف متفرجا منتشيا ... بدا له خائنا ، وبدا لي جاسوسا مندسا ، وبغير اتفاق صريح أصدرنا حكما واحدا بالإعدام ...

قفز عليه وطرحه أرضاً ، كبل قدمية ... أجهزت على رقبته ، اعتصرتها ... خرجت منه أنفاس متحشرجة ، تقطعت وتبددت ... خلفت صمتا ثقيلا مرهقا ...

توقف الحوار وكاد الخلاف أن ينحسم غير أن رائحة الجثة المتعفنة طرحت سؤالاً جديداً وقفنا أمامه شبه عاجزين ...

أين نخفي الجثة ؟!

قال إنها فرصتنا الوحيدة كي نعترف بجريمة ارتكبناها ، وليسجل كل منا اعترافه كاملاً على الجدران ...

فكرت في حيلة ماكرة ، فلأتركه يسجل اعترافه بمفرده ولأستشعر طعم البراءة ولو مرة في حياتي ... جلست ساكنا وخربشات الاعتراف تحفر قلبي، ورائحة الموت تخنقني ، عيناي تجتهدان في دفع الظلمة عن صدر الجدران .

أنوار الفجر المرتقبة بدت شحيحة وهزيلة ، وروح الحياة السجينة انتفضت من سباتها مبكرة ... الضجة الصاعدة والصرخات الهابطة التقيا عند باب زنزانتنا ليعلنا عن جريمتنا الشنعاء ويكشفا عن ثلاثة وجوه قبيحة أحدها بارد ومخيف ...

لأول مرة أشعر بالخوف ، ولأول مرة أجد عينيى تجحظان وتبحثان عن مكان للتخفي... صرير المفتاح في الباب أربكني واستفز في نفسي قوى الشر لمواصلة الطريق الدامية التي بدأتها في الليل ، لكن الاعتراف المحفور على الجدار المقابل أعاد إلى نفسي المضطربة بعض التماسك ... وفي فتحة الباب لاح وجه السجان جامدا ، وبحركة آلية رتيبة دفع صحن الطعام تحت قدميَّ، وقبل أن يغلق الباب عاد يتفرس في وجهي بملامح فزعة، ثم رمق سقف الزنزانة الذي يقطر دما ، وتبخر من أمامي مذهولاً موتوراً ...

تاريخي الطويل داخل السجون والأقسام والمستشفيات يشهد بأني اعتدت نظرات الذهول ، وملامح الفزع ، ولوعة القلوب ، حتى انتفاضة الشعور المجنونة بفعل البله ... لكن صحن الطعام الوحيد ، هو الذي أدهشني وكشف لي عن مفردات جديدة غريبة لعالم كان مألوفاً ...

زميلي في الزنزانة وشريكي في الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها لم يكن هناك ... الجدران كانت سوداء صماء ، ولا اعتراف إلا بوجودها الأخرس ... الجثة تركت فراغاً متعفنا ... أخذت أدور في الزنزانة أحاول أن أحقق شيئاً من الارتباط بين ظواهر مفككة وأحداث دارت ثم ما لبثت أن توقفت عن الدوران ... يمكنني أن أقبل كل تفسير ، غير التفسير الذي يضيف أشيائي إلى قوائم الخيال ويضعني في مصاف الواهمين ... فهناك جريمة ، لا شك في ذلك ، لكن الجثة في الزنزانة التي فوقي والدماء على وجهي ، ورائحة الموت تغشى المكان من حولي.. والجاني ، لعله نام يوماً تاركاً المذياع مفتوحاً!!

ورغم أن السماء كانت صافية ، والشمس مشرقة ، والجو صحواً ، إلا أن الأمطار هطلت بغزارة

طقوس حجرية

ككل البلهاء والمختلين كان يجمع الحجارة من الطرقات ويحتفظ بها في ملابسه، لكنه على غير عادة البلهاء والمختلين لم يكن يستخدمها في مطاردة الصبية الذين يجاهرون ببلهه واختلاله... بل كان يبيعها!!

ولم يكن ذلك هو مصدر الدهشة والغرابة في الأمر ، فللمجنون أن يبيع وأن يشتري ، وأن يحب ويكره ، ويحكم العالم إذا أراد ... لكن الدهشة الحقيقية كانت تكمن في أنه لم يكن يجد صعوبة في بيعها ... في هذا الحشد الكبير من الناس ، وهذا الطابور الممتد المتجاوز لحدود الرؤية والمنتهي عنده وتحت قدميه ...

ليس هذا فحسب ، بل كان هناك طابور آخر ممتد بغير انتهاء وملتقيا بالطابور الأول في منطقة مركزية هو محورها ...

ولو توقف الأمر عند هذا الحد لكان في بلاهته وجهل العامة تفسير مريح ومرضٍ ، وإلا لكان في مجرد الدهشة حل مؤقت لمسألة في حكم التأجيل ...

لكن الأمر الملفت وغير القابل لمجرد الدهشة أو التأجيل ، هو أن الناس كانت تشتري الحجارة في الطابور الأول ثم تعود لتسترد أموالها من الطابور الآخر ...

كان يقوم بعمله بحماسة وارتياح ، وكان العرق يتصبب منه غزيراً حتى لتشعر وكأنه يقوم بعمل هام وشاق ... وكان الناس مندفعين وثائرين، وكأنهم يخشون الحجارة أن تنفد ...

سألت أحدهم عن سر الاندفاع ، ولماذا لا يحتفظون بأموالهم والحجارة تملأ البيوت والطرقات ؟!

قال : إن له لمسة سحرية والحجارة تكتسب قوة خارقة عندما تمر بيده .

كان ما أيسر أن أشيح بوجهي معرضاً وأن أمضي في طريقي متعللاً بسلامة عقلي وذهاب عقولهم ، لكن شيئاً بداخلي أوقفني وجعلني متردداً أميل إلى البقاء والدخول معهم في هوسهم وهرجهم ...

كان الطريق طويلاً والوصول إليه عسيراً مرهقاً ... توقعت روائح منفرة وتجنبت ملابس رثة بالية وضايقتني شعور شعثاء مغبرة ... لكن الأمر لم يخل من رائحة معطرة، ورابطة عنق أنيقة مذهبة، وحقيبة جلدية لامعة ...

وكان هناك رجل ذو ملامح قاسية ونظرات صارمة ، يرتدي ملابس شتوية قديمة رغم حرارة الجو الملتهبة ، يمسك بعصا غليظة ويقوم بتنظيم الطابور بطريقة همجية ... مال أحدهم عليه في مودة ظاهرة ودس شيئاً في جيبه فنقله إلى مكان متقدم في الطابور ... استلفتني مشهد طفل نصف عار، يمتطي كتف أمه ويعتصر قطعة من الحلوى، فتخلف آثاراً لزجة حول فمه وفوق صدره ... وظهر محني لكهل

يتوكأ على عصا قصيرة معقوفة ... أما عن هاتين العينين المتألقتين ، فلم يكن من المناسب أن أتوقف عندهما طويلاً ...

حركة الشمس كانت أسرع من حركة الطابور ، والوصول إلى منطقة الغروب كان أيسر من الوصول إليه ، ومرض أحدنا أو سقوطه أمر متوقع ، فشيعنا الجنازة وتلقينا العزاء، ورقصنا في عرس أحبت عروسه عريسها حتى الجنون.

ووقف أحدهم محتداً زاعماً أني احتللت مكانه .. دافعت عن نفسي بالحجة والمنطق ولما لم أجد جدوى توسلت بالحاضرين أشهدهم على سلامة موقفي وأحقيتي بالمكان ...

لكنه أظهر عدم اقتناع وألح في طلبه غير المستحق ... لم يكن يملك أدلة أو براهين ، لكنه فقط كان يصرخ ويأتي بحركات بهلوانية غريبة ... فكرت أن أفجأة بتفاهة الأمر كلية، مصرحاً له باللوثة الكبرى التي نخوضها والمعنى الفارغ الذي ندور حوله ، لكني تحمست أكثر ووجدتني أكثر تمسكاً بهذا الحق الأجوف ممعناً في صراع مفتعل ، وحاولت أن أقوم بحركات مماثلة، فقابلها الناس بالضحك والهرج ... شحنت صدري بقوة نفسية أضمرتها يوم ضاعت فردة جوربي الجديد وتسمرت في مكاني ، ثم أطلقت صرخة احتجاج هائلة ...

إنه مكاني ولتذهب وأمثالك إلى الجحيم ...

تقدم نحوي حتى كاد وجهه المتجهم يلتصق بوجهي ، فبدت الأوساخ عالقة بين طيات لحمه العاري خلال جلبابه الرث المتهريء ، وبينما

كنت أتابع أنفاسه الساخنة تخترق مسام جلدي، انتفض ذراعه بتوتر ولطمني بكف حديدية ... ارتجت الرؤية أمامي وشعرت بما يشبه الاغماء ، وأفقت على ملامحه الجامدة وهيئته القذرة، لكنها – جميعاً– بدت جبارة وراسخة .. وتوقف الناس فجأة ملتفين حولنا في غاية من الدهشة والذهول، وتوقف تيار البلاهة المتجه إلى مجنون ، وبدوت مصدرا لحالة جماعية مشفقة ... طفرت عيناي بالدموع وقد تلبسني شعور عميق بالأسف ... ثم بعصبية :

إنه مكاني ولتذهبوا جميعاً إلى الجحيم ...

اختفى الرجل في الزحام وجعل الجميع يمسحونني بنظرات مستغربة ويضربون كفاً بكف... تقدم مني الرجل الهمجي القائم بتنظيم الطابور وأخذ يربت على كتفي مواسياً مهدئاً ... دفعته من أمامي وركضت في قلب الزحام متجهاً إلى هناك ، إلى نهاية الطابور ... لم تستطع قوة أن توقفني أو تعوقني عن الحركة ، كنت – كنصل حاد – اخترق بطونهم وصدورهم وأنفذ من عيونهم ... وكسهم مارق انطلقت بغير إرادة حقيقية نحو هدف غامض لا أقيم له وزناً ...

وتجلى الليل رهيباً ليطوي الوجوه في العدم ويختزل الأنفاس إلى برودة قارسة، ولتعلن الظلمة الموحشة عن انفرادي بسر الوجود وكنز السعادة الأبدية ، فغرست أصابعي في صدري وانتزعت قلبي وقذفته في وجه الظلمة الكثيفة البلهاء ... وبصوت رهيب أودعته كل قواي الحيوية ...

طلبت حجراً لزوجتي العقيم ، وحجراً لأبي نصف المشلول ، وأمي المتوفاة وأخي الشقي وصديقي التعس ، وحجراً كي أقذف به عبيط الحارة المجاورة ...

كما طلبت حجرين كبيرين : حجراً أضاجعه وآخر كي أعبده !!

مسافات بينيَّة

مكتبي يحتل موقعاً متميزاً في المؤسسة التي أعمل بها ، حيث يقع في منتصف الممر المؤدي إلى مكتب المدير وقبل انعطافه بقليل جهة اليسار ... ومواجهة نافذته لنافذتي ووجود باب مكتبي مفتوحاً دائماً على الممر يمكناني من رؤية وجوه الموظفين قبل الدخول إلى المدير، وهي لحظة هامة ، ورؤية نفس الوجوه وهي ماثلة أمامه ، وهي لحظة أكثر أهمية ... وتلك ميزة لا يدرك أهميتها إلا الموظفون العموميون ... والوجوه دائماً تتغير وتتبدل بشكل سريع ومدهش وكأن هناك غرفة لخلع الوجوه ، لكن وجهها دائماً واحد ... لا يتبدل...

تعمل في نفس مكتبي ... نقتسم العمل والحديث كما نقتسم الطعام والشراب والهموم ... تقول إنها تثق بي ، وأقول إني لا أثق بها فتضحك معتقدة أني أداعبها ... أحياناً أشغل نفسي بأشياء مضحكة ، كأن أحفظ تفصيلات ملامحها بدقة كي أسجل عليها ولو تغيراً واحداً أثناء مراقبتي لها من نافذة المدير ، أو أدير ساعة الإيقاف لأحسب الزمن الذي تستغرقه في الذهاب والإياب ، وقد أشعر أن للأنفاس إيقاعاً خاصاً يساعد على مراقبتها وعدها، لكنها تبدو منتظمة... دائماً منتظمة ...

ولم أكن لأسلم من وطأة نفس التجربة ، فأقطع الممر في خطوات واثقة وأرسل للجدران بسمة ساخرة من معنى حاضر في نفسي ، وأطرق الباب بغير عناء وأدخل بلا استحياء ، وتكون عيناي في

عينيه وعيناها في رأسي تخترقها وتمثل بجسدي، فأستدير متمهلاً وأقبض على ملامحها بطرفي ، وأطوقها بابتسامة جسورة فتنفجر ضاحكة وتغوص بين أوراقها لتنهمك في عمل سبق وأن أنجزته عشرات المرات ...

ولا يجد المدير غضاضة في أن يوافق على طلبي ...

وأعود من نفس الممر وظلي يحتك بنفس الجدران وسعادتي الداخلية وسخريتي الجاهزة لا تفارقاني ... وتعثر قدماي بشيء صلب برز في طريقي فجأة ، وأكاد أسقط وأتماسك... وأكتشف أن هناك سلة للمهملات وبوفيه ودورة مياه وسلم حلزوني يؤدي إلى أسفل، وعشرات الأرجل والوجوه وقطة بيضاء ترضع أولادها ...

وأتفرس في ملامحها بجنون ... وأعيد التفكير في كل الأشياء ... بغير تفرقة ...

الباب والنافذة عينان كليلتان ، والممر أنف مزكوم بينهما ... التغير يتم في كل ثانية ، وشخص الآن ليس هو قبل دقيقة ، وأحداث العالم تمر منضغطة في هذا الحيز الضيق الغائب عن وعي مكتبي ... وعيناي الواهمتان توهماني بحقيقة إخلاصهما ...

الموظفون غادروا مكان العمل ، ومنذ اللحظة تبدأ الحماقات ... الصباح يحمل نفس الأقنعة ، وربما المساء ، وعيناي ماتزالان تزعمان سلامة إبصارهما ...

الليل ممر آخر مظلم ، والدنيا برمتها تمارس نزقها في غفلة من البشر .. وتبدو الحياة فاضلة إلى حد القداسة .. ونعجب لجلال الشمس والقمر والسماء المرصعة بالنجوم ..

أشياء مكتبي تحمل نفس الملامح ، وتنحت في التغير ثباتاً لا ينفصم ، وأشياء غرفتي كذلك عند المساء ... وتصير الجرائد والكتب والمقاعد وساعة الحائط مناطاً للثقة والإعجاب ... وهذا التمثال الرخامي البارد يتحداني بنظرات ثاقبة وأقسم أنه يخضع في كل يوم لعشرات المثّالين ، ويلقاني بألف وجه ، وتظل أصابعه الجامدة قابضة على عصاته المعدنية وتقف قدماه عاجزتين عن قطع خطوة واحدة ، بعد أن قطعت مئات الخطوات ... وتحكي لي الكتب نفس الأساطير ، وتحكي لغيري أساطير آخر ، وتبدو المسافات الفاصلة بين الأشياء مرتعاً خصيباً لأحداث جسام ...

وأفتح النافذة فألمح واجهات المباني وأسطح السيارات وجذوع الأشجار ، وذلك الرجل المسن وتلك المرأة العجوز يجلسان ذات الجلسة في الشرفة المقابلة ، يتبادلان نظرات صامتة، ويتوسطهما كوبان مترعان بالفراغ ... وظلال الأشياء أشياء أخرى بغير ظلال ...

أقف أمام المرآة وأتفرس في ملامحي الدقيقة ، وأفكر في هذا الحضور القوي لشخصي المحفور بعناية في فراغ الموجودات ، وأكاد أجزم بأني تلك الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا العالم الزائف الذي يموج بالتغير ، غير أني ما ألبث أن أستدير حتى أشعر أن ثمة شخص ثالث كان يتوسط المسافة التي بيني وبين صورتي في المرآة...

بضعة سنتيمترات جهة اليمين قليلاً

أجلس وحيداً في غرفتي الضيقة وتبدو الأشياء قريبة وفي متناول يدي، لكنـــي لا أتحرك نحوها ولا أحاول الحصول على أي شيء مما أريد .

الغرفة غاصة بالتفاهات ، ولا أعتقد أني أتيت إلى هذا العالم كي أنفض الغبار عن صورتي المعلقة بالحائط أو أعيد ملء ساعة تبدد زمانها ، وصارت كياناً أجوفاً يحتل حيزاً من الفراغ ...

أحياناً أشعر بالضيق ، لكني لا أعتقد أني سأكون أفضل حالاً إذا ما عملت على إزالة أسباب ضيقي ...

هذا المخلوق الجالس فوق مقعدي يجب أن يحافظ على كيانه لآخر لحظة وألا يهدر وجوده عبثاً وبغير هدف حقيقى يسعى إليه ...

الانتقال من مقعد إلى مقعد مجاور مسألة تحتاج إلى تفكير عميق ، وأعجب لهؤلاء الذين يغيرون مواقعهم بسهولة ،ويتحركون في كل مكان ، بداع وبغير داع ، لا لشيء إلا لأن هناك دائماً مقعدا خاليا...

مكتبي يقع في مواجهة باب الغرفة ، أحرص على التوجه إليه مباشرة متجاهلاً التفاصيل الكثيرة الصغيرة ، حتى تلك الحشرة التي عبرت الطريق من أمامي لم أشأ أن أسحقها بقدمي لأني لم أجد المبرر المعقول لهذا المسلك العنيف غير المسئول ...

أعلم أن أشيائي تبقى كما هي وأحياناً أشعر أن هناك أياديا خفية عبثت بها، لكني أؤمن أن ثمة قوة داخلية تجعل الأشياء تعيد ترتيب أوضاعها لتبدو متسقة مع موقفي العازف عنها...

أبدو غريب الأطوار ،، لكني أملك أسباباً وجيهة ... منذ شهر تقريباً ، وبينما كنت أتناول طعام الإفطار مع زوجتي وأولادي ، لاحظت أن آنية الزهور الموضوعة هناك أمام النافذة تقف في مواجهتي بشكل مستفز ... الظلال الساقطة منها والملتصقة بها عند القاعدة تجعل منها مخلوقاً غريباً ... الأزهار الخارجة منها تلمع في ضوء الشمس كأنصال حادة ومدببة ... والزاوية التي تواجه بها الصالة لا تشجع الجالسين على مواصلة النظر إليها ...

فقط كانت في حاجة إلى أن تتحرك بضعة سنتيمترات جهة اليمين ... لكني وبنفس ذلك الشعور العميق الذي يتخلل كياني ، أحسست أني ما كنت لأحرك آنية زهور تقف بزاويـــة لا تشجع على مواصلة النظر...

فلتعد الدنيا كلها ترتيب أوضاعها كي تحقق هذه الخطوة العابرة ولتتركني لخطوات أبعد وآفاق أرحب ...

وأخذت أفكر في كل الاحتمالات الممكنة ، وكيف أن الصالة بمقدورها أن تكون مسرحاً لأحداث جسام ، وقد تكون آنية الزهور بوضعها الحالي تلعب دوراً هاماً وضرورياً ، وربما في وقت آخر يتطلب التطور الطبيعي للأمور أن تلعب دوراً آخر من شأنه أن يحركها بضعة سنتيمترات جهة اليمين ...

زوجتي دائمة الشجار مع أولادها ، فهي تعنف الولد لأنه كثير الصخب والضحيج ، وتعنف البنت لأنها صموتة إلى حد السآمة والضجر ، وكلاهما يعنف الآخر لأن الولد يتطلع إلى أشياء أخته ، وهي تتطلع إلى أشيائه ويستمر الشجار لينتهي بغير حسم ... وأشعر أن التفاصيل الصغيرة حياة أخرى موازية يجب أن تدور هناك ... ويمر أسبوع وتبدو آنية الزهور أكثر استفزازاً ، ولا أشعر بالقلق ، فلابد أن التفاهات تدفع التفاهات في رحم الغيب ، وفي لحظة ما سيتمخض الفراغ الساكن عن قوة محركة وتلتقي كل الأحداث الصغيرة المتوازية في نقطة هي التي تشغلها آنية الزهور المستفزة.

زوجتي اشترت دمية جديدة ، وكالعادة دب الخلاف بين الولد والبنت... الدمية غير محددة الملامح ، فيمكن أن تكون لولد ، كما يمكن أن تكون لبنت ، الأم اشترت دمية فحسب ... الولد يدعي أنها له ويحكي أسطورة طويلة قامت الدمية الذكر ببطولتها ، البنت تقسم أن الدمية رقيقة وجميلة ولا يمكن أن تكون لولد ... الأم تصرخ محتجة ، وتهدد بإرجاعها للبائع ، الولد يقترح أن يتنازل عنها لأخته في مقابل أن تعطيه حصانها الخشبي القديم ... البنت على غير العادة توافق .

الأسبوع الثاني يمر ، وظلال آنية الزهور تزداد قتامة وأوراق الأزهار البارزة تبدو أكثر حدة ، ويختلط اللون الأحمر بأشعة الشمس فيشيع في النفس إحساس بغيض بالسخونة المقبضة ... وأسلى نفسي بمراقبة الأحداث اليومية الرتيبة غير المجدية وأنأى بنفسي عن

الضياع فألملم كياني ، وأستجمعه في حيز الجسم المحدود ، وأعتبر اللحظات التي تمر ومضات مضيئة تزيد في قوة الروح الكامنة ، المتحفزة للانطلاق ... وأعد العالم بانفجار داخلي سيغير وجه الدنيا...

ويكشف مكر ابنتي الصغيرة عن سر قبولها لعرض أخيها وتنازلها الغريب عن حصانها الخشبي ، حيث تسللت في غيبته واستولت على الحصان من دولابه الخاص وأودعته دولابها ثم أحكمت إغلاقه بالمفتاح وراحت تفكر – حائرة – في مكان أمين

لا يخطر على البال تخفي فيه المفتاح .

وهنا شملتني سعادة غامرة فأغمضت عينيي وأنا أحسد نفسي على نفاذ بصيرتي، وأعجب لتلك القوة الخفية الهائلة التي تدفع الأحداث – رغم تفاهتها – في الاتجاه الذي أريد... واستسلمت لحالة من الاسترخاء اللاواعي وأنا أرقب ابنتي بعين الخيال وهي تتحرك نحو النافذة وتصعد فوق أحد المقاعد لتخفي المفتاح أسفل آنية الزهور ...

ويمر الأسبوع الثالث بشكل غريب ، الولد لم يكتشف اختفاء حصانه ، والأم لم تلحظ تزحزح المقعد عن مكانه ولا الأثر الترابي الواضح لأقدام ابنتها الصغيرة ...

والآنية تخرج لسانها الزهري الأحمر ... والظلال القاتمة تبدو كقبعة سوداء لمهرج سخيف ، وينحل ضوء الشمس إلى ألوانه السبعة وتتحول الصالة إلى مسرح هزلي فأشعر بسخرية مريرة ...وأتساءل بانفعال مغيظ :

لماذا توقفت الأحداث ؟!

لماذا تخلى الأطفال عن سذاجتهم ، وارتفعت الأم عن الصغائر ، وكفت التفاهة عن تفاهتها ؟!

وأشعر أن ثمة مؤامرة ، وأحملق في الوجوه متحدياً ، ويفزعني خاطر مخيف ، فربما أدركوا ما أدركت وبات كل منهم يدخر حياته لدور أكبر ...إنها كارثة ... وشعرت بالضيق وكدت أختنق ...وصرخت الأم : من الذي حرك المقعد من مكانه ؟! فاستردت أنفاسي ، وبدأت الدنيا تفيق من سباتها ... وسارعت البنت تدفع بادعاء كاذب : إنه هو ، وأشارت إلى أخيها .

أجاب محتداً : لا أعرف شيئاً عن ذلك .

قالت الأم معنفة : بل أنت الذي يقوم دائماً بهذا الفعل .

قام الولد في شيء من الضيق وعدم الاكتراث ، وأخذ يعدل من وضع المقعد ، وهنا لاحظ آثار أقدام أخته على المقعد فانفرجت أساريره وامتلأت نفسه بالبهجة وكأنه عثر على شيء كان يبحث عنه منذ وقت طويل ... والتفت ناحية آنية الزهور وحركها بضعة سنتيمترات جهة اليمين ليلتقط المفتاح ويخفيه في ملابسه ، ويعود إلى المائدة باسماً تملؤه نشوة الانتصار ...

وأحسست أني أنا الذي أنتصر وأن سعادتي تفوق سعادته ، وبت في هذه الليلة هانئاً مطمئناً ، وأخذت أفكر في هذا العالم الساذج الغريب وتلك العجلة الأبدية الرتيبة التي تغريني بالدوران فيها حتى تسحقني في النهاية ... فلتعلمى أني أبداً لن أدور، بل عليك أنت أن تتوقفي

لي، ولتعلمي أننا سنلتقي يوماً ما، لكن لا كعجلتين لاهثتين ، وإنما كفكرتين واعيتين...

ويأتي الصباح التالي بهيجاً وأتناول طعام الإفطار في سكينة ، وتبدو آنية الزهور في زاويتها الجديدة جذابة وجميلة ، تلامس أشعة الشمس حوافها بنعومة فتصير الأوراق المتفتحة حلقات نورانية سابحة، وتختفي الظلال إلا من خيوط رفيعة حريرية الملمس ، وتبدو الآنية كبلورة سحرية تطوي في داخلها كل أسرار العوالم الخفية المثيرة...

وتصرخ زوجتي :

من الذي حرك آنية الزهور من مكانها ؟!

ويدعي الولد أن أخته هي التي فعلتها ... وتدافع البنت عن نفسها بحماس ، وتنهض الأم مغيظة ، وتقبض على الآنية بإصرار وتوتر لتحركها بضعة سنتيمترات جهة اليسار.

العبيط والكلب

حينما طوحت بالكرة بعيداً عند أطراف الوادي ... وعندما توقفت عند قدميه الضخمتين وتحت جثته الهائلة ... المدججة ببندقيته الجسورة العامرة بالذخيرة ... والمشرَّع نصلها في الفضاء ... يطعن صدر السماء بضراوة ، فيتلون الأفق بلون الدم ... رماني بنظرة ذات مغزى مفهوم ، ولم يكن أمامنا سوى الوقوف في منتصف المسافة نشيِّع الكرة بنظرات حسيرة وقلب محزون ، ثم العودة إلى قريتنا حيث تتلاصق الديار في انطواء مهيب ...

في الليل البارد وبينما كنا متحلقين حول المدفأة معرضين وجوهنا وأكفنا لصهد النار المضطرمة ، تلتحم أجسادنا في محاولة يائسة لافتعال الدفء المفقود ... كانت أعيننا تسترق النظرات عبر زجاج النافذة – حيث يتحرك شبحه جيئة وذهاباً بخطوات متثاقلة – ونمارس طقوس الصمت في خشوع آلي يدفع إلى القنوط ... وبحماسة مفاجئة قفزت في صدر أبي كاسراً نظام الحلقة المحكمة الاستدارة منتهكاً لحرمة الصمت المكللة بصلوات سرمدية ، وسألته بإلحاح لم يعهده من قبل :

لماذا تذهب الكرات عند أطراف الوادي ولا تعود ؟!

ضمني إليه بعنف وعيناه عالقتان بالشبح الماثل خلف زجاج النافذة ، ثم قال في حالة من الشرود :على القلوب المسافرة أن تيمم وجهها

شطر القرية ، وعلى الكرات المصوبة أن تتخذ من الديار أهدافاً لها ...

تحت أشعة الشمس الذهبية وأمام ديارنا المائلة الجدران المنكسة الأسقف ، كانت تجثو على ركبتيها الرقيقتين وترقبني بعينين صافيتين وقد شمرتُ عن ساعديَّ النحيلين وجعلت أشيِّد قرية فسيحة ، عالية الأسقف ، قائمة الجدران ...

نهضت واقفة وهي تقول بنبرة فاترة ...

لقد سئمت تشييد البيوت الرملية وآمل في بيوت حقيقية ... افتر ثغري عن ابتسامة رضاء ، وهممت بمصارحتها بذات الحلم الذي يختلج بصدري ، لكنها تقدمت إلى الأمام وكان قوة خفية تشدها ناحية أطراف الوادي ، وأشارت بإصبعها في اتجاهه وهي تقول بإصرار اهتز له جسدها الصغير:

أريد بيتاً هناك في هذا الجانب البعيد من الوادي ... حوَّلت بصري حيث أشارت فلمحت – على البعد – تقطيبة رهيبة ، وعينين ملتهبتين قاسيتين ، واستحال وجه الوادي متجهماً ، فثارت ريح هوجاء عاصفة ، وانحنت قامات النخيل السامقة ... وأحكمت دومات الرمال قبضتها على قطعان الماشية ، فترنحت الصغيرة وتحولت الرؤية الصافية إلى نظرة ساهمة في فضاء لا نهائي أسود...

ضياع الشياه أمر مألوف ، تماماً كضياع الكرات ، وفورة الرمال ، واحتضار الشمس في الآفاق ... لكنها تذهب مأخوذة ولا تعود ...

تختفي الواحدة في إثر الأخرى ... ولم يعد هناك سوى بقايا قليلة تسوقها روح القطيع نحو الهلاك ...

فضراوة الذئاب أهون على الشياة من وحشية الوديان ، وحبس الماشية والنوم قبل المغيب مسلك آمن في قرية ترصدها أعين الجحيم...

الإقدام لم يكن يوماً من شيمتي ... ولا حتى الجنون !!

لكن علاقتي بعبيط القرية، هي التي جعلت مني ذلك الصبي المجنون... المغامر ...

تحذيرات أمي الدائمة وتعنيف أبي المتواصل هما اللذان جعلاني – على غير العادة – أخفي الأطعمة تحت ملابسي ، وأتسلل بعيداً كي ألقاه عند حدود الوادي ...

يقول البعض أن معاشرته للجن هي التي تمكِّنه من اختراق الوادي ، ويقول البعض الآخر أن هويته المفقودة هي التي تمكِّنه من أن يمضي حيث شاء وكيف شاء ... لكن يظل الجنون هو الفكرة المقبولة لدى أهل القرية كتفسير سحري لما يكتنف القرية من غموض ، وما يلم بها من خطوب تستعصى على الأفهام ...

عندما أنظر في عينيه ألمح بريقاً غامضاً يضيف إلى أحوال القرية إبهاماً فوق إبهام ، ويسد الطريق على كل محاولة للفهم ... فمرة أشعر وكأنهما بوابتان كبيرتان تفتحان على العالم كله ... ومرة أشعر وكأنهما هوتان مظلمتان تذهبان بالناظر إليهما إلى حيث لا رجعة ...

ما إن انتهى من التهام الطعام حتى استلقى على ظهره، وظلت عيناه مفتوحتين على السماء برهة قصيرة ثم أغمضهما فجأة، وراح في نوم عميق ... لكني أشفقت أن يضيع الوقت سدى ومازال السؤال ينهش في صدري ويهز كياني ...

هززته برفق ، لكنه بدا كقطعة جامدة بغير حياة ... فكرة الموت لم تراودني ، ولم تقلقني يوماً لأني – وبغير سبب معروف – أشعر أنه بمنأى عن الموت مادام يعرف ما لا يعرفه الآخرون ...

هززته مرة أخرى في شيء من القوة ، لكنه بدا هذه المرة أكثر جموداً وبدت فكرة الموت أكثر قبولاً عن ذي قبل ...

ألقيت بنظرة إلى هناك ، فصفعتني نظرته الحارقة وملامحه المتجهمة ، ولمحت خطواته الثقيلة تتحرك نحونا بجسارة مخيفة وإصرار هو الموت ذاته ...

تولاني الهلع وأخذت أهزه بعنف وأصرخ في أذنيه العريضين، صرخات ملؤها التوسل والاستغاثة ... لكنه كان قد مات بالفعل ... وقبل أن أرفع رأسي إلى هناك شعرت بظل ثقيل يسقط علينا يُدني رؤوسنا نحو التراب ، وخيل إلي في هذه اللحظة أن الإهانة يمكنها أن تميت... ويمكنها أن تحيي ، وعند هذه الخاطرة ، وجدتني أطوح يدي في الهواء ثم أهوى بها على صدغه بقوة لا أدري من أين أتتنى ، فانتفض من رقدته وحملق في وجهي ذاهلاً ، فأشرت بإصبعي إلى ما وراء ظهره وأطرافي ترتعد وعيناي تتراجعان في وجهي ...

التفت إلى حيث أشرت وعاد ينظر إليّ مبتسما كأن شيئاً لم يره ... تميزت غيظاً وصرخت في وجهه ...

إنه الموت وراءك !!

نهض واقفاً ... ودار بعينيه في أنحاء الوادي وهو يظلل نظرته بيده ، كأنما يبحث عن شيء في أعماق المجهول ...

أحسست في هذه اللحظة أن فكرة الجنون لم تكن وهماً يعيشه الناس وأن خروجي من وراء الأهل كان خطأً فادح الثمن ...

صرخت مرة أخرى ثم انهرت تحت قدميه في توسل ... مال نحوي ورفعني ، ثم ربت على كتفي وهو يستند إلى عصاه ...

عد إلى البيت ، فأنا ذاهب إليه ...

تشبثت بملابسه قائلاً :

فلتأت معي ... الموت لا يفرق بين عاقل ومجنون ... خلَّص ملابسه من يدي ومضى إليه يتوكأ على عصاه بثقة غريبة وابتسامة لا تفارق شفتيه ... متجهاً صوب صدام مروع ... منحسمةً نتيجته لصالح الشبح الآتي من المجهول ...

بعد ضياع الشياة وضياع الأبناء ... بعد ذهاب الطمأنينة وموت الآمال ... أن تفقد القرية عبيطها فهذا أمر غير ذي بال ...

لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لي ... بل كان أمراً مؤسفاً ومؤلماً في آن واحد ... لأني بفقده قد فقدت الصلة التي كانت تربطني بالحقيقة ... ولو أنها صلة مخبولة ، إلاَّ أنها كانت تحمل بعض المعنى وتحرك في نفسي شيئاً من الرجاء ...

ذهب رفيق الكرة ورفيقة الرمال وماتت ثرثرة العبيط غير المفهومة واختفت نظرته الغامضة إلى الأبد ... حتى كلـــب القرية الذي لا يكف عن النبـــــــــاح ، مضى خلف نباحـــــــه حيث لا نباح ولا ثرثرة ... لا رمل أو كرة ...لم يبق سواي وحفنة ذاهلة من البشر ، تنام مبكراً وتصحو مبكراً ، وتبسم للكارثة بارتياح ورضاء مادام الذي تبقى أكثر من الذي ضاع ... لكني بعملية حسابية بسيطة ، وبنفس منطقهم المخبول ، أدركت أن الذي تبقى أقل من الذي راح ... هذا إذا أضفنا إلى حسابنا ، العبيط ... والكلب ...

كنت كمن عثر على اكتشاف خطير ، فهرعت نحو الديار محموماً ... أطرق الأبواب ... بابا بعد باب ... أصرخ في الوجوه منبهاً أن يعيدوا حساباتهم ... وأن هناك عبيطا وكلبا لم يكونا يوماً في الحسبان ... وأن طوفان الفناء آت كي يحصد الجميع ...

تجمهر الرجال والنساء والأطفال ... حتى الشيوخ والعجائز ... خرج الجميع لأول مرة عن سكونهم تجمعهم روح المغامرة والانتقام ... خرجوا لا استجابة لندائي الغريب ، لكن بدافع آخر لا أعرفه ... فهم لم يعبأوا بكلماتي ، ولم يصغوا لندائي ... بل أنهم بدلاً من أن يضيفوا العبيط والكلب إلى حساباتهم ، أسقطوني أنا من كل حساب ... لتبقى المعادلة بسيطة ميسورة ولتمضي الأحداث كيفما اتفق ...

عند حدود الوادي اصطف الجميع شاهرين العصى والفؤوس والبنادق ، متأهبين لنزال دام ، بروح متحدية جسورة ...طارئة ...

وقف شيخ القرية يشد من أزرهم ويمنيِّهم بجنة الخلد ، وبحياة أخرى أكثر صفاءً إذا ما لقى أحدهم حتفه ... لكن كلامه أحدث أثراً عكسياً لدى البعض ، ووهنت بعض العزائم ، وفترت معظم الهمم ، فانشقوا على أنفسهم وحدثت في الصفوف بلبلة ...

خرج أحدهم قائلاً :

إننا بمجيئنا إلى هنا نرتكب خطأً فادحاً لأننا نقدم له أهل القرية دفعة واحدة كلقمة سائغة ...

كانت لهذه الكلمات البسيطة وقعاً أكبر في النفوس ، فهرول عدد غير قليل عائداً إلى القرية ، وتبقى نفر قليل ينظر إلى بعضهم البعض في حيرة ويشيّع الوادي بنظرات وجلة متوجسة ...

كدت أصيح فيهم بالتقدم ، لكني تراجعت خشية أن تكون كلماتي سبباً في نكوصهم ، لأن كلماتي فقدت كل أثر ، وشخصي فقد كل أهمية ... ولم يبق إلا التمني يحرك هذه الأجساد الجامدة ويعيد الحياة إلى بنادق أعطبها الصدأ ...

صاح الشيخ أن تقدموا ... وظل يردد الأحاديث والأدعية كأنما يسوق الجبال إلى التحرك

أو يستحلف ماء البحر أن يجمد ...

كانت خطواتهم بطيئة ، وأجسامهم متلاصقة ... مذعورة... يحتمي كل منهم بالآخر وتضيع حركتهم في اتساع الوادي كأنما لا حراك ... تتعلق أعينهم بالأفق الدامي الموحي بالفناء ...

برزت إلى أعينهم ملامحه القاسية ونظراته القاتلة ، ثم تحركت بندقيته صوب الجميع... أيقنوا أن إصبعه في شروع نحو ضغطة الموت والدمار ، فهرولوا متدافعين إلى الوراء ... يدوسون بعضهم البعض بغير اهتمام ... مذعورين مذهولين ... لتعصف هذه الردة بحياة نصفهم ، ولتكن المسألة أكثر وضوحاً والكارثة أقرب إلى البداهة حتى يدركها كل رجل وامرأة ... كل شيخ وطفل ... كل كلب وعبيط ...

القرية المنطوية ازدادت انطواءً ، ودفن الجميع رءوسهم في أعمالهم اليومية الرتيبة ، وازدادوا تمسكاً وإيماناً بمعتقدهم القديم ... فالاستسلام للمجهول والرضا بالمقادير يوفران وقتاً كافياً للعمل واللهو ويضمنان لرجل الصباح لقمة المساء ...

ورغم أني هجرت لعب الكرة وتشييد البيوت الرملية ، إلا أني مازلت أوثر المجيء إلى هنا والجلوس عند حافة الوادي ، أولي القرية ظهري ، وأرقب المساحة المقفرة الممتدة أمام ناظري ... أنتظر بعثا من أرض الموات ...

كرور الأيام واعتيادي على هذه الجلسة الصامتة المتأملة ، جعلني آلف وحشة الوادي والاحمرار المخيف الذي يكلل الأفق ، حتى نظرته المتجهمة لم تعد بذات التجهم الداعي للاندحار ...

وخيل إليَّ لو أن أهل القرية مكثوا معي هنا لألفوا ما ألفت ولاكتسبنا أرضاً جديدة يوماً بعد يوم ... ولعلنا انتهينا إلى هناك ، وعانقنا نظرة

الخوف وصدر الموت وبطن الجحيم ، ولحققنا سلاماً أزلياً أبدياً ، لا ابتداء له ولا انتهاء ...

توقفت محاولات البحث عني ، وانطوت فكرة ضياعي ، وعاد ثور أبي يدور في ساقية جدي ... فدائماً أذهب ودائماً أعود ، وتوقف عندي تيار الفناء وبدأت أكتسب بريقاً جديداً ، وأحاطني البعض بهالة من القدسية ، وأخذت تتجه إليَّ أنظار النساك والعابدين ، غير أني ما لبثت أن فقدت كل اعتبار عندما طلعت عليهم يوماً ويدي تسوق كلب القرية المفقود ، وأخذت أجوب كل الأزقة والحارات ، يكبلنا قيد واحد ... يشاركني الطعام والفراش والنظرة الساهمة المتأملة الطامحة في اختراق الحدود ،..

وخرج أحدهم يصيح ساخراً : كلب القرية قد عاد ... وقبله عبيط راح وعبيط جاء، فالقرية إذاً بخير مادام هناك كلب ينبح وعبيط يهذي...

بجلستي الدائمة على الجانب الآخر من الوادي ، ومصاحبتي لكلب القرية ، استطعت أن أصنع شبحاً جديداً يلوح للقادمين من الحقول ... شبح أليف وديع يطوي وراءه شبحاً قبيح المنظر عظيم الشرور ... يختلط ظلانا ، فيرسمان صورةً غريبةً مستفزةً ، فيضربنا الصبية بالحجارة ، ويضربنا الكبار بتالف الثمر ، ويخرج البعض لسانه ، ويشير آخر بقرنين فوق رأسه ، ثم يهرع الجميع متضاحكين ...

ولم تكن تلك الأفاعيل لتردعني أو تشغلني عن محاولة استخراج تلك الصورة الكامنة في رأس الكلب ... هو الوحيد الذي راح ثم عاد ،

فهو إذن يعرف مالا أعرفه ومالا يعرفه الآخرون ... إن رأسه يحفظ كل تفصيلات المأساة ويملك الحل لما أضناني وأضنى الجميع ... لكنه لا ينطق

أو أنه ينطق بلغة أخرى غير لغتى ، فإما أعلمه الكلام أو يعلمني النباح أو تكون هناك لغة ثالثة للتفاهم بيننا ، غير إلقاء الحجارة وقذف الثمار والتلويح الهستيري بالجنون ...

أن يضاف إلى ظلينا ظل ثالث ، فهذا أمر لم يكن يعني كثيراً بالنسبة لصبية الطريق ورجال المزارع غير أن الهدف صار أكبر ، وهواية التصويب باتت أيسر ... لكن أن يخرج العبيط من بطن الوادي ليشاركني جلستي وحيرتي مع الكلب فهذا هو الحلم الكبير الذي طالما تراءى لناظريَّ دون أن يغمض لي جفن ...

حدثته بكل صراحة ووضوح وباللغة التي شاء ... عاملته معاملة الند للند ... فإما نحن العاقلان الوحيدان في هذا الوادي ، وإما نحن مجرد مخبولين ... وفي كل الأحوال هناك لغة موصولة وحديث جلل يجب أن يتم ... لكنه بذات البلاهة الأولى عاد يطلب طعاماً ويلوح للأفق بأنه آت من سفر بعيد ... وعدته بما يريد على أن يخبرني بما رأى... لم يعبأ بكلماتي وأخذ يدور حولي كمن يبحث عن شيء ثم مال على الكلب وهو يقول: يبدو أنك لا تملك طعاماً، ويبدو أنك جوعان مثلي ، فمارأيك في ذبح هذا الكلب؟!!

انزعجت لكلماته وداخلتني أحاسيس عدة ، مزيج من الخوف والاشمئزاز والضجر...

جذبت الكلب نحوي وقلت بحدة :
لا داعي للمراوغة ، أنت تفهمني جيداً وتعرف كل شيء ، فلا داعي للخبل ...
حوّل بصره عني محدقاً في الفضاء ، وتقلصت ملامحه ، ثم انفرجت ... فابتسم وضحك ، وأخذ يرقص بغير داع ...
اقتربت منه – والكلب مازال مكبلاً في يدي – ، قلت بنبرة هادئة محاولاً التودد إليه :
لقد ملأت الفراغ الذي خلّفته وراءك وقمت بدور العبيط بدلاً منك ، فلترد هذا الصنيع بصنيع أقل ولتخبرني بما يؤرقني ...
استلقى على الأرض وقال :
إن الله خلق النوم للذين يجوعون ولا يجدون طعاماً ... جثمت على صدره مغيظاً وقلت بحنق :لقد سئمت هذا الدور السمج الذي تصر على أن تكرره أمام الجميع بمناسبة وبغير مناسبة ، ألا تدري أن حياتك ستظل خالية من المعنى مادمت تحصرها في دائرة مغلقة من الخبل والجنون !!
بنظرة ساهمة قال بهدوء ، مشيراً إلى وضعي فوق صدره :
إن الله خلق أمثالك للذين ينامون في العراء ولا يجدون ما يستترون به ...
أطبقت على رقبته بعنف وضغطت بكل قوتي قائلاً :
إن الله قد خلق أمثالي كي يريحوا الدنيا من أمثالك ... ضغطت بقوة أكبر فتقلص وجهه ، وجحظت عيناه محمرتين ... تمددت ساقاه ،

وانفردت يداه ... تعجبت لهذا الاستسلام الغريب ، وفي عينيه نظرة توحي بتقويض العالم لو أراد ...

تراجع الكلب مذعوراً وانحبس نباحه في صدره فأخذ يزوم وهو يجذب الوثاق الذي يربطنا فيخفف من وطأة يدي على عنقه ثم انفلت هارباً ، متجهاً صوب الوادي من حيث أتى...

بانقطاع الحبل انقطعت شهوة الانتقام التي كنت أستشعرها وأفقت على يدي وهما تشرعان في ارتكاب حماقة سخيفة ... تراجعت إلى الوراء خاوي القوى ، مهيئ النفس للتمثيل بجثتي ... أغمضت عينيَّ...

صاح في وجهي :

لقد أضعت الكلب وها أنت تستعيض عن الطعام بالنوم ، فلا تقلق نومتي إذن ...

أغمض عينيه – كعادته – وراح يغط في النوم ... عندئذ أدركت حقيقة أكبر من تلك التي كنت أبحث عنها ... فلا يمكنني أن أكون عبيطاً ... كما لا يمكن للعبيط أن يكون كلباً ... وأن الحقيقة تربض في بطن الوادي وليست في رؤوس الحيوانات والمخبولين ... وأن الانتظار هنا كالجلوس في الديار ، مادام هناك واد فسيح وشمس لا تغيب ...

عرجت في نفس الطريق التي عرج فيها الآخرون ، واتجهت صوب المنطقة التي انحدر منها شيطان الوادي يوم دارت معركة المصير...

جعلت أضرب في الأرض بقوة ، وداخلي قوة خفية تدفعني دفعاً إلى الأمام وبلا اكتراث ... تملكتني حمى الاندفاع فأخذت أعدو وأعدو ، حتى شعرت أني لا أصنع مستحيلاً ولا أخوض هلاكاً ، وإنما لديَّ رغبة في التقدم تصحبها لذة الاستمتاع بالانطلاق واختراق المحظور...

لا أرى غريباً أو جديداً ... نفس الوادي برمله وحجارته ... بشمسه الذهبية ونسماته الرقيقة .. حتى المنحدرات والمرتفعات ، ألفتها من قبل وطالما صعدتها وانحدرت من فوقها ... لكني فقط أشعر أني أمضي بغير حدود .،.

وبغير شعور حقيقي بالتعب وصلت إلى الجزء الغامض الساقط من وعي القرية وحسابها ... الحاوي لكل الأسرار والمجاهيل ، الخاضع لقوى الشر والدمار ...

وقفت أسترد أنفاسي وعيناي زائغتان تمسحان المكان بدقة متناهية مشوبة بالتوتر والذهول ... وشيء من الحذر ...

مساحة دائرية منخفضة بعض الشيء ، تنمو الحشائش في أجزاء منها في تنسيق طبيعي بديع ... بعض الدرجات الحجرية غير المكتملة والمكسوة بطبقة بنية ... عدد كبير من الكرات المكتملة ، والمنبعجة بفعل الطقس ... بيوت رملية شبيهة بتلك التي كنت أشيدها عند أبواب القرية ...خيل إليَّ إني سمعت صوتاً كالحفيف ... رفعت عيني ، أذهلتني المفاجأة ... كانت رفيقتي تجلس على ركبتيها وتواصل بناء البيوت الرملية ... وفي المقابل كان رفيقي يلعب بالكرة

مع رفقاء آخرين ... ولمحت الكلب مقعياً في هدوء عميق ، وقطعان الماشية ترعى في حرية ... يتوسط الجميع تمثال حجري ضخم ، صنعته يد الطبيعة في غير افتعال... تعشش فوق رأسه وكتفيه الطيور ... يلقى على الوادي ظلاً رطيباً ... يرفع للأفق يداً مسالمة ، ويبسم للقرية في وداعة طفل بريء ...

الكاتب في سطور

- **ماهر عبد المحسن حسن**
- **كاتب، وأكاديمي مصري.**
- **محاضر في علم الجمال والفلسفة المعاصرة**
- **ولد بمحافظة الجيزة عام ١٩٦٨م.**
- **تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام ١٩٩١م، وفى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٩٨م.**
- **حصل على الماجستير عام ٢٠٠٥م، وعلى الدكتوراه عام ٢٠١٤م.**
- **له ثلاثة كتب:**

١. مفهوم الوعى الجمالي في هرمنيوطيقا جادامر، صادر عن دار التنوير اللبنانية، عام ٢٠٠٩م.
٢. جماليات الصورة في السيميوطيقيا والفينومينولوجيا، صادر عن هيئة قصور الثقافة المصرية، عام ٢٠١٥م.
٣. أطياف جادامرية، صادر عن دار مجاز للترجمة والنشر، عام ٢٠١٩م

- **له العديد من الأبحاث والمقالات، فى مجالات الفلسفة والفن والأدب، المنشورة فى الدوريات العربية المختلفة مثل القاهرة والثقافة الجديدة وميريت الثقافية المصرية، والجديد والعرب اللندنيتين، و الاستغراب ومؤمنون بلا حدود المغربية.**
- **شارك فى العديد من اللقاءات التليفزيونية والإذاعية، وتناول موضوعات شتى تخص الفلسفة الغربية والفكر العربي المعاصر.**
- **شارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات ذات الصلة بالعلوم الإنسانية وقضايا الثقافة والتراث والإبداع.**
- **لديه مشروع تجديدي يعمل على ربط الفلسفة بالواقع، والدين بالحياة والفن بالأخلاق.**

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
المقدمة	٤
الرؤى الأربع	٧
توحد	١٠
قطار الزمن البعيد	١٤
رجل بلا قبعة	١٨
سارقة الملامح	٢١
كي أعيش	٢٥
الأحياء والأموات	٣١
ثقب في رأس إنسان	٤٧
البيدق والصرصور	٥٨
الخروج	٦٨
الجانب البعيد من المنضدة	٧٢
ثلاثة وجوه قبيحة	٨٣
طقوس حجرية	٨٨
مسافات بينية	٩٣
بضعة سنتيمترات جهة اليمين قليلا	٩٦
العبيط والكلب	١٠٢
الكاتب في سطور	١١٦